

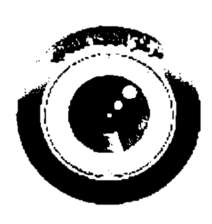
رسالة في الاستبداد

د. خالص جلبي

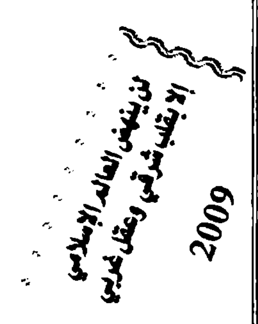
رسالة في الاستبداد

د. خالص جلبي

فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ



جميع الحقوق محفوظة
لمركز الناقد



الطبعة الاولى 2009
رسالة في الاستبداد
د. خالص الجلبي
عدد الصفحات 112

مركز الناقد الثقافي

مؤسسة ثقافية فنية مستقلة

دمشق - ساحة عرنوس - بناء واحة عرنوس - بجانب السفارة البلغارية الدور الرابع -

مكتب رقم ١ - ص ب : ٣١٤٩٠

أسس عام ٢٠٠٧ بمدينة دمشق .

- رسالة المركز :

- أن يكون عربياً، مسلماً، إنسانياً، عالمياً، يشع بحروفه الفاهمة حواراً، وتلاقياً، وتعارفاً، وحكمة ..
- محاولة جادة للخروج من القوالب الجاهزة والأفكار المعتادة والقناعات المحنطة .
- نقلة نوعية من اللاإدراك إلى الإدراك بلوغاً إلى الأمل على أن يصبح أي تعاهد واستيثاق من غالب مغيب حاضر فاعل .
- الناقد الثقافي لن يكون حبيس منظومة دائرية أو حلقة فكرية مفرغة بل هو إسعاف وإنعاش للفكر والوجدان .

تتم التحويلات المالية باسم مركز الناقد على الحساب التالي :

IN USD ($)
Correspondent bank :
SWIFT:COBADEFF — COMMERZBANK / FRANKFUR
Beneficiary bank : — BANQUE BEMP SAUDI FRANSI
SWIFT : BBSFSYDA — (MARKAZ AL NAKED/BBSF)
Name of the final beneficiary : — **(0125719/BBSF)**
Account number of the final beneficiary :

IN SAUDI ARAB RIYAL (SAR)
Correspondent bank :
SWIFT : BSFRSARI — BANQUE SAUDI FRANSI
Beneficiary bank : — BANQUE BEMP SAUDI FRANSI BBSF
SWIFT;BBSFSYDA — (MARKAZ AL NAKED/BSF):
Name of the final beneficiary — **(0125719/BSF)**

إضاءات

- الأمم لا تتعلم بالكلمات بل اللكمات..
- الأمة التي لا تشعر بالحرية وتعشقها لا تستحقها..
- التغيير يتم بالتدريج واللين..ليس المهم استبدال الحاكم بل فرملته..
- ما لم يكن البديل جاهزاً فلا معنى للتبديل..
- الكل يوظف الله سبحانه إلى جانبه مسلحاً بالأدلة العقلية والنقلية..
- الفقهاء منهم من اشتُروا بدراهم معدودة..

ومنهم من لا يفقه من الفقه سوى عمامة كبيرة..

- للأسف لم تجتمع قريش في تاريخها إلا لقتل النبيﷺ..

وللأسف لم تحصل وحدة عربية إلا في معركة الخندق لإبادة الإسلام وأهله..

- القواعد توضع لخرق القواعد..
- الاجتماعات تُستخدم لمنع أي تجمع..
- المؤتمرات تعقد للتآمر..
- توظيف النصوص لحل المشاكل لا يقترب إلا بعداً عنها..
- من يغفل عن سنن الله فإن سنن الله لا تغفل عنه..
- نغضب من الشخص المناسب بالقدر المناسب في الوقت المناسب وللهدف المناسب..

- اكتمال الأشياء هي بداية النقص..
- الشر مثل القذارة مادة في غير مكانها..
- الحيرة تأتي من الجهل.. وليس هناك أكثر خوفا وضلالاً من الجاهل..
- إنّ العوام إذا جهلوا خافوا.. وإذا خافوا مَلَكَهم الطاغية..
- بين العرب والعلم مسافة سنة ضوئية..
- الصراع بين العلماء والمستبدّين هو مثل جدلية الظلام والنور..
- من مرض بالاستكبار حمل بذرة الاستضعاف في أعماقه..
- من احتقر الناس احتقر نفسه..
- حينما يخسر الإنسان نوره الملائكي يستبدله بظلمة الشياطين..
- من باع نفسه للقوة ارتهن للقوة..
- إنّ الأمن يتبخر مع الظلم.. ومن الأمن تتولد الحريات..
- الإنسان يولد حراً ومتساوياً مع الآخرين في كل مكان..
- من يعرف أنّه لا يعرف، يكون قد وضع رجله في أول طريق المعرفة..
- عدم مكافحة الشر بالشر ..
- خير لنا أن نتحمل الظلم من أن نمارسه ..
- التغيير الاجتماعي ينطلق مع ممارسة الواجب، أكثر من المطالبة بالحقوق ..
- إننا في زمن التيه التاريخي.

قصة الحكيم كونفوشيوس والمرأة والنمر

تقول القصة: إنّ (كونفوشيوس) مرّ على مقربة من جبل (تاي) فأبصر امرأةً تقف إلى جانب أحد القبور وتبكي بمرارة وحرقة، فسارع المعلّم إليها، وبعث تلميذه (تسي — لو) يسألها: إنّك لتبكين يا امرأة، وكأنّك احتملت من الأحزان فوق الأحزان.

فردت المرأة تقول: وكذاك الأمر فقد قتل نمر من قبل والد زوجي في هذا الموقع، وقد قتل زوجي أيضاً، وها هو ولدي قد مات الميتة نفسها أيضاً.

فقال المعلم: ولماذا .. لماذا لم تتركوا هذا المكان؟ فردت المرأة: ليست هنا حكومة ظالمة.

فقال المعلم آنذاك تذكّروا قولها يا أولادي: ; إن الحكومة الظالمة أشدّ فظاعة من النمر. نعم إن الحياة في غابة أفضل من الحياة في مجتمع من دون قانون+.

ويُعقّب الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل) في كتابه (السلطان) على هذه الواقعة للتأكّد من ;كون الحكومة أقل فظاعة من النمر+ فيرى أن مشكلة ترويض السلطان موضوع قديم : ;وظن الطاويون أنها مشكلة لا تحل فنصحوا بالفوضوية.. وجرّب العالم الحكم العسكري المطلق والثيوقراطي والملكية الوراثية وحكم القلة والنظام الديموقراطي، وحكم القديسين، ويدل كل هذا على أن مشكلتنا لم تحل بعد+.

ويذكر إمام عبد الفتاح إمام تجربة اجتماعية رهيبة في كتابه (الطاغية)[1] أن العادة جرت في بلاد فارس قديماً ;عندما يموت الملك أن يُترك الناس خمسة أيام بغير ملك وبغير قانون، حيث تعم الفوضى والاضطراب جميع أنحاء البلاد، وكأن الهدف من وراء ذلك هو أنه وبنهاية هذه الأيام الخمسة، وبعد أن يصل السلب والنهب والاغتصاب إلى أقصى مدى، فإنّ مَن يبقى منهم على قيد الحياة بعد هذه الفوضى الطاحنة سوف يكون لديهم ولاء حقيقي وصادق للملك الجديد، إذ تكون التجربة قد علّمتهم مدى رعب الحالة التي يكون عليها المجتمع إذا غابت السلطة السياسية+.

ويرى (راسل) أن الدولة يمكن أن تمارس ضغطها الساحق في صور شتّى كما في علاقتنا بالحيوانات، سواء بتعليق الخاروف بحبل وشدّه بعنف وهو السلطان العاري، أو عندما يلحق الحمار الجزرة مقتنعاً أنّ مصلحته في أن يفعل ما نريد، أو الحيوانات التي تتقن -التمثيل- وسطاً بين هذين الصنفين، أو بصورة مغايرة كما في قطعان الأغنام عندما نريد حملها إلى البواخر فنجر قائد القطيع بالقوة فلا تلبث حيوانات القطيع الأخرى أن تسير وراءه راضية مختارة.

وحسب (راسل) فإن: ;حالة الخاروف تتمثّل في سلطان الشرطة والقوّات العسكرية. وتمثّل حالة الحمار والجزرة سلطان الدعاية. وتظهر الحيوانات الممثلة قوة التعليم فتؤدي الجماهير التحية للقائد البطل.

١- الطاغية٥٤.

أما القطيع الذي يتبع قائده المقهور على إرادته فيتمثّل في السياسات الحزبية عندما يكون زعيم الحزب أو قائده موثوقاً إلى زمرة من الناس+.

ويرى (راسل) أن المخلوقات البشرية لابد لها من أن تعيش على نحو جماعي، ولكن رغباتها ;خلافاً لرغبات النحل تبقى فردية، ومن هنا تنشأ المتاعب والحاجة الماسة إلى قيام حكومة+.

وعند هــذا الخيــار الموجع بــين (فوضــى الغابة) و(طغيان الدولة) ولدت الحكومــات، ولكن مع عدم التكافؤ في الســلطان «إذ إنّ من يملكون أكثره يســتخدمونه لتحقيق رغباتهم التي تتعارض مع رغبات المواطنين العاديين، وهكذا فإن الطغيان والفوضى يتشابهان في نتائجهما المدمرة».

أو كما قال (أفلاطون) في كتابه (الجمهورية):«إن عقيدتي هي أن العدالة لا تخرج على أن تكون مصلحة الأقوى».

وقصة (كونفوشيوس) مع المرأة تفتح الباب لفهم سيكولوجية الطغيان. فالطغيان مرض اجتماعي إنساني؛ فلم نسمع أن نحلة مثقّفة هتفت بالحرية ضد الظلم؛ وإذا حاولت نحلة أن تدّعي الثقافة فترقص لقطيع النحل فقد يستمتعون برقصها، ولكن مفهوم الطغيان قد يضيع وقتهم عن جمع الرحيق وإنتاج العسل.

والعقارب تعيش على وجه الأرض منذ ٤٠٠ مليون سنة. ولكن لم يحدث أن حصل انقلاب عسكري بين صفوفهم يقوده الرفاق الثوريّون؟ كما لم نسمع عن ثورات في مجتمع النمل.

والحيوانات والحشرات والطيور ودواب الأرض وبني البشر يعيشون في مجتمعات.﴿ ومَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام٦/٣٨].

ولكن المجتمع الإنساني مفتوح وبقية المجتمعات مغلقة تعيش برتابة. المجتمع الإنساني يتطور، ومجتمعات السمك والحشرات والأفاعي لم تغيّر سمتها منذ نصف مليار سنة، منذ أن بدأت عديدات الخلايا في الظهور في الانفجار الثاني البيولوجي الذي حدث قبل ٥٣٠ مليار سنة بعد الانفجار الكوسمولوجي الذي حدث قبل ١٥ مليار سنة.



في معنى ضرورة المجتمع للإنسان

وهذه الحقيقة الأولى تقودنا إلى شرح الفكرة الثانية التي أوردها ا بن خلدون في مقدّمته، وأثبتها علم (الأنثروبولوجيا) عن -ضرورة- المجتمع الإنساني.

فالحصان والعجل ينزل من بطن أمه فيمشي فوراً. والطفل الرضيع يحتاج سنة حتى يقف على قدميه. ويأتي الإنسان إلى الحياة وهو أضعف المخلوقات قاطبة، ليتطوّر لاحقاً فيرسل مركبات فضائية إلى المريخ، ويكشف الرمز الوراثي، ويمتلك طاقة النجوم، ويسحق الزمن إلى الفيمتو ثانية، ويتخاطب بسرعة الضوء ويكشف عن المركبات دون الذرية من الكواركز واللبتونات.



نظرية ابن خلدون

وابن خلدون ينطلق من نظريته عن ضرورة الاجتماع الإنساني من نقطتين:

- الغذاء.
- الدفاع.

فلا يمكن لإنسان أن يُطعم نفسه رغيفاً من الخبز لولا تعاون سلسلة لا نهائية من الصناعات والمهارات، مثل حراثة الأرض بسكّة الحديد التي تحتاج بدورها إلى صناعة تعدين الحديد، والأخرى بدورها تتطلب مهارة جيولوجية وتقنية صناعية، وهكذا فلقمة الخبز البسيطة ليست بسيطة بل تتعاون شبكة لانهائية من المهارات حتى نصل إلى إنتاجها.

ولكن مع إنتاج لقمة الخبز تبرز مهارات لا نهائية من الصناعات، ويأمن الإنسان على نفسه من خوف، ويطعم من جوع، فهذه هي الحضارة، والحضارة هي مجتمع المدينة.

وفي المدينة توجد كل التخصّصات كما يذهب إلى ذلك (دوركهايم) في كتابه عن تقسيم العمل أنه ثمرة مجتمع المدينة. ومنها تخرج كل الصناعات، ويحصل تقاسم العمل، ونمو المجتمع باضطراد.

ومن الجميل الاستشهاد بفكر ابن خلدون وكيف وصل إلى هذه النتيجة، ويشرح ابن خلدون نظريته على الشكل التالي:

جاء في مقدمة ابن خلدون[2] أن: ;الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع+، ثم ينطلق ابن خلدون لتفكيك هذه الظاهرة: ;إن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء، غير موفية له بمادة حياته، ولو فرضنا أقل ما يمكن فرضه، وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا تحصل إلّا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة، من حدّاد ونجّار وفاخوري. وهب أنه يأكله حباً من غير علاج، فهو أيضاً يحتاج في تحصيله أيضاً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف+.

ثم يمضي ابن خلدون بنفس الطريقة للبرهنة على موضوع حماية الإنسان نفسه من الطبيعة، فالحيوانات مزوّدة بما تستطيع به أن تدافع عن نفسها خلاف الإنسان. وكل ذلك يتأتّى للإنسان (باليد والفكر) والاجتماع الإنساني.

۞ ۞ ۞

٢- انظر فصل(العمران البشري) الصفحة ٤١.

بين الغابة والدولة تفكيك الفكرة عند - برتراند راسل -

وفي هذه النقطة يدخل الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل)على الخط فيرى أن اجتماع بني البشر ضرورة.

وأن الإنسان إذا عاش مع الحيوانات خرج حيواناً ولا يصبح إنساناً كما جاء في قصة (صبي أفيرون الوحشي) الذي تحدّث عنه (بيتر فارب) في كتابه (بنو الإنسان).

والمجتمع هو الذي يجعل من طينة الآدمي بشراً سوياً،يتكلّم ويتواصل ويتقن المهارات ويتعلم في سنوات ما كسبه الجنس البشري في ملايين السنين.

ولكن المشكلة كما يراها (برتراند راسل) أن اندماج البشر في وحدة اجتماعية يتولّد منه مشكلة الطغيان. فالإنسان يحوي الفردية، ولكنه في المجتمع يخسر فرديته لصالح آخرين يتحكّموا بمفاتيح القوة.

وهذا التناقض بين الحرية الفردية والضغط الاجتماعي هو الذي يولّد إشكالية ممارسة الطغيان من فرد على فرد، أو مجموعة على مجموعة، أو من فرد على مجموعة﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾[القصص٢٨/٤].

وحتى الديموقراطية الحالية يرى (توكفيل) أن الأقلية مهدّدة بطغيان الأكثرية. وأكبر تحد يواجه الديموقراطية هو توازن حكم الأكثرية مع عدم الطغيان على الأقلية.

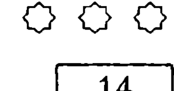
وأرسطو كان مناوئاً للديموقراطية، وأفلاطون شجبها، وخسر سقراط حياته على يد الديموقراطية، حينما صوّتت الأكثرية بفارق صوت واحد على إعدام أعظم عقل أنتجته الثقافة الإغريقية.

ويرى (غيتانو موسكا) وهو من الحجج في هذا العلم أن الديموقراطية ليست إلّا واجهة تخفي حكم الأقلية، وهي تتطابق في قسم منها مع فكرة المؤرّخ البريطاني (جون آرنولد توينبي) في كتابه (مختصر دراسة التاريخ) أن من يُنشئ الحضارة هي الأقلية المبدعة التي تمشي خلفها الأكثرية بآلية التقليد والمحاكاة كما يتهادى قطيع الغنم على أنغام مزمار الراعي. وعند انقلاب محاور الحضارة تتحول (الأقلية المبدعة) إلى (أقلية مسيطرة) تسوق الجموع بالقوة والإكراه. وهنا ينقلب (مزمار الراعي) إلى (سوط كزركسيس) وتنهار الحضارة.

وكما جاء في الإنجيل: إنّ ما قبل السقوط يأتي الكبرياء. والله توعد أن يصرف عن آياته الذين يتكبرون في الأرض. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ ولاَ فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص ٢٨/٨٣].

وعند جدلية الفرد والمجتمع نحتاج إلى وقفة خاصة للقيام بتفكيك اجتماعي لفهم هذا القانون، وكيف يتدخّل المجتمع في صناعة الفرد كما تفعل الصناعات في المواد الخام. ومن خام الحديد يمكن أن تخرج سيارة مرسيدس أو حاوية قمامات.

۞ ۞ ۞



قصة صبي أفيرون الوحشي

القصة التي أشرنا إليها عن صبي أفيرون الوحشي تحتاج إلى تفصيل خاص لأهميتها. وجاء ذكر القصة في كتاب (بنو الإنسان)[3]، وهو من الكتب التأسيسية؛ فبعد اندلاع الثورة الفرنسية بعشر سنوات وقبل أن يغلق القرن الثامن عشر بعام واحد ضجّت فرنسة والأوساط العلمية من حدث صُدم له المجتمع الفرنسي وترك الناس حيارى في التفسير والتعليق وسببه العثور على إنسان عار في غابة (أفيرون) أشبه بالذئاب منه بالإنسان؛ ففي شتاء ذلك العام ١٧٩٩م ظهر للناس طلباً للدفء والغذاء صدفة فأمسكوا به بعد عناء كما هي في قصة (ماوكلي) الطفل الذئب الذي عرض في مسلسل للأطفال.

كان الطفل في حدود الثالثة عشرة من العمر قذراً تفوح منه الروائح المقرفة، عارياً تماماً من أي لباس، لا يعرف معنى العورة، شرساً يعض ويخمش يد كل من يقترب منه، لا يمشي بشكل منتصب، بل منحنٍ وأقرب للحيوان ويهز جسمه طول الوقت، يروح ويغدو وكأنّه في قفص الحيوانات، وبين الحين والآخر تعتري جسمه تقلّصات مخيفة، كما كانت تعبيرات وجهه تخلو من أي مشاعر رحمة أو تودُّد.

٣- كتاب بنو الإنسان ٢١٠ لـ (بيتر فارب) من كتب سلسلة عالم المعرفة الكويتية.

وقف الناس ينظرون إليه متأمّلين، فهو يمثّل من زاوية (التكيُّف الممتاز) مع الطبيعة، أي يمثّل الصنف المتوحّش النبيل، كما كان يدعو إليه المفكر الفرنسي (جان جاك روسو) بالعودة إلى الطبيعة لأن الحضارة هي المرض؟! فالطفل كان ذو بنية مدهشة قويّة ومقاومة للمرض فقد استطاع أن يقاوم الموت كل السنوات الطويلة وهو عار، ونحن نسقط للرشح أو التهاب الصدر مع لفحة هواء وبرد بسيط. ورأى فيه فريق آخر الهوة المرعبة التي يمكن أن يهوي إليها الإنسان في عريه المطلق وقذارته البهيمية؛ عندما يعيش وحده محروماً من المجتمع، في حين حمد الله الفريق الثالث على نعمة العيش في مجتمع إنساني مظلّل بالأمن والرفاهية.



حصيلة تجربة الدكتور إيتار مع فيكتور!!

الشيء المهم في هذه الحادثة أنها كانت محرضاً للدكتور (جين مارك إيتار) في دراسة هذا المخلوق، حيث اختلف فيه فريقان هل هو أبله رماه ذووه في الغابة؟ أم هو إنسان قد عاش في الغابة منذ أيامه الأولى؟؟ وأصّر الدكتور (إيتار) على أن هذا الكائن ليس بإنسان (أبله) في حال من الأحوال، فهو لا يتصرّف بوصفه إنسان وأبله، بل هو شيء مختلف تماماً، إنه إنسان لم يتصل (بالمجتمع الإنساني) منذ أن بدأت حياته على هذا الكوكب.

صمّم الدكتور (إيتار) على تجربة مثيرة للغاية، هي إعادة هذا المخلوق إلى حظيرة المجتمع، وأعطاه اسم (فيكتور) ومرّت التجربة لعدة سنوات.

لم تكن التجربة سهلة فهو لا يعرف الانتصاب ولا لبس الثياب، تناول الطعام أو قضاء الحاجة، لا أصول التعامل أو آداب اللياقة الاجتماعية، وقبل كل هذا لم يكن ينطق بكلمة فرنسية واحدة.

ومن خلال تربية طويلة ولعدّة سنوات تقدّم الصبي قليلاً فأصبح يعرف كيف يزرّر ملابسه، أو يتبوّل، ينتصب نوعاً ما، ويتصرّف بشكل معقول، ولكن الشيء الذي استعصى هو اختراق (حاجز اللغة) !!

كانت اللغة هي العائق الرهيب الذي تحدّى الدكتور (إيتار) على الرغم من كل المحاولات المضنية خلال عدة سنوات؛ نعم استطاع الطفل أن يفهم بالسماع بعض الكلمات الفرنسية ولكن شفتاه انحبست عن نطق أي كلمة، كما انعقل لسانه عن التعبير بأي جملة واضحة سليمة التعبير، وكانت النتيجة التي خرج بها الدكتور(إيتار) أن المصيبة التي حلّت فوق رأس هذا الصبي ليست بلهاً أو قصوراً عقلياً، بل العزلة الاجتماعية التي طوّقت مصيره بظلمات غير قابلة للانفكاك فكتب يقول: ;يأتي الإنسان إلى هذه الكرة الأرضية من دون قوة جسدية، ومن دون أفكار تولد معه، وغير قادر بذاته على متابعة قوانين طبيعته الأساسية التي ترفعه إلى قمة المملكة الحيوانية، ولا يستطيع الوصول إلى المركز المرموق الذي اختصتّه به الطبيعة إلّا إذا كان في وسط مجتمع، ومن دون حضارة يكون الإ نسان واحداً من أضعف الحيوانات وأقلها ذكاءً+.

وقصة الصبي المتوحّش في فرنسة ليست الأولى في تأكيد الأثر الاجتماعي في (تشكيل) الإنسان فهناك قصة مثيرة عن الملك (فريدريك) حاكم صقلية من القرن الثالث عشرللميلاد.



تجربة الملك فريدريك القاسية

في القرن الثالث عشر للميلاد حكم صقلية ملكٌ موهوبٌ فنان هو فريدريك الثاني، الذي كان يجيد التكلم باللغة العربية، وذو ملكات متعدّدة من نظم الشعر والعناية بالمفكرين والفلاسفة، وفي أحد الأيام استولت عليه فكرة عجيبة عن أصل اللغة، وكيف تكلّم بها الإنسان منذ القدم؟ ومن أين تعلّمها؟ وكيف تعلّمها؟ وهل تولد معه بالفطرة؟

وللوصول إلى أي الأفكار هي الأصح قام بتجربة بشرية قاسية؛ فأحضر مجموعة من الأطفال حديثي الولادة ودفع بهم إلى نساء حاضنات يقمن بإطعام وتنظيف الأطفال ولكن (على الساكت) من غير نطق أي كلمة؛ فنشأ الأطفال في عالم أخرس لا مكان للكلمة فيه.

وجلس الملك فريدريك متوتراً ينتظر النتيجة ليرى ماذا ينطق الأطفال عندما يكبرون، وبأي لغة سيتحدّثون ويتفاهمون؟ هل هي العبرية أصل التوراة؟ أم اليونانية لغة الإنجيل التي بها كتب؟ أم العربية التي نزل بها القرآن؟ أم هي اللغة العامية التي يتحدث بها أهل صقلية؟



والذي حصل أن الأطفال الذين خضعوا للتجربة لم يتكلموا لغة قط، بل طواهم جناحٍ الموت الرهيب!! فيبدو أن اللغة والكلام ومناغاة الطفل تشكل غذاءً ثانياً به يعيش ومن دونه يلاقي حتفه!!

وهناك تجربة أخرى قام بها فرعون من مصر هو (بسماتيك الأول) حسبما نشرته مجلة (P.M) الألمانية في عددها الأنثروبولوجي[4].



٤- ذكرت القصة بالكامل في المجلة الألمانية العلمية .
(-P . M . PERSPIKTIVE - DAS WUNDER DER EVOL TION (96 - 044 . صفحة ٧٢.

تجربة الفرعون بساميتك الأول
(PSAMMETICH I)

استولت فكرة عجيبة على ذهن الفرعون لم تغادره ليلاً نهاراً مفادها لو تركنا الأطفال من دون أن نعلّمهم لغتنا فهل سينطقون باللغة الأصلية للإنسان ؟ وهل ستكون نفس اللغة الهيروغليفية أم ستكون متباينة ؟ وإذا اختلفت فأي لغة ستكون ؟ كان ذلك قبل ٢٦٠٠ سنة من الآن، فانطلق الفرعون (بساميتك الأول) بعد أن استولت عليه الفكرة تماماً الى ميدان التجربة اللغوية (الألسنية) .

يذكر المؤرخ اليوناني (هيرودوتHERODOT) عن هذه التجربة المثيرة أن الفرعون أخذ طفلين حديثي الولادة فدفعهما إلى عائلة راعي تحت رقابة مشدّدة، بحيث تمّ تغذية الطفلين من دون لفظ كلمة واحدة لهما، وكان الفرعون يتفقّدهما شخصياً ليرى نتائج تجربته، ولعل هذه التجربة الألسنية الأقدم في هذا الاتجاه، لمعرفة أصل اللغات بواسطة التجربة البشرية.

وبعد مرور سنتين تذكر الرواية أنهم نطقوا شيئاً يشبه لفظة (بيكوسBEKOS)، وعندما سأل الفرعون الحكماء حوله عن شعب ينطق هذه اللفظة ذكروا له الشعب (الفريجي PHRYGIER) الذي يعيش في آسية الصغرى، ويعرفه المؤرخون أنه كان من الشعوب الهندية الجرمانية، وأن هذه الكلمة تعني الخبز في لغة الشعب الفريجي؟!!

فهل لغة هذا الشعب هي فعلاً أصل كل اللغات؟ لو صدق هذا لحُلت هذه المشكلة بأبسط السبل، ولكننا نعلم اليوم أن الشعب الفريجي الذي كان يعيش قبل ثلاثة آلاف سنة ليس شيئاً في عمر الزمن مع الإنسان الذي أثبتت عظامه المرمية في طبقات الأرض في شرق إفريقية، أنه يعود ليس إلى خمسة آلاف سنة؛ بل سبعة ملايين من السنين حسب آخر الكشوفات الأنثروبولوجية في تشاد؟!!



تجربة ملك سكوتلاند يعقوب الرابع

JAKOB-IX-OFSCOTLAN)

تروي المجلة الألمانية المعنونة (معجزة التطور P. M. P. DAS WUNDE DER EVOLUTION)

قصة مشابهة أخرى مثيرة قام بها ملك سكوتلاندا قديماً، بعد ثلاثة قرون من تجربة الملك فريدريك الثاني حاكم صقلية، لاكتشاف جذر اللغات واللغة الأصلية، التي تحدّث بها الإنسان، تحت وهم أنّ نطق الإنسان كان بالأصل موحداً، وأن اللغة في حالة كم ثابت غيرِ متطور، ويزعم مراقبو التجربة أنهم -أي الأطفال- تُكلّموا في خاتمة المطاف اللغة العبرية، ولا غرابة لأن أهل كل ثقافة يعتبرون لغتهم هي (سرّة) العالم، وأصل اللغات، وسر الكون، وأنهم أفضل ما خلق الله.

وفي ضوء القصص السابقة يمكن أن نفهم مثلاً قصة (حي بن يقظان) التي كتبها الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل الذي عاصر الفيلسوف ابن رشد، ووصل فيها من خلال من عاش وحيداً في الجزيرة يرضع من لبن الغزال، إلى تعلّم اللغة وإدراك الحقائق العقلية الكبرى من دون مجتمع بشري؟!!

يا ترى ما مدى رصيد هذه القصة من الحقيقة؟؟

۞ ۞ ۞



في قصة حي بن يقظان وروبنسون كروزو !!

تلعب الأسطورة دوراً كبيراً في إثارة الخيال عند الإنسان ومنها قصة(حي بن يقظان) وكذلك قصة (روبنسون كروزو) بشكل أخف، وإن كانت تمضي على نفس الوتيرة، وكذلك قصة (ماوكلي) طفل الغابة الذي يعيش مع الذئاب (لالا) و (سورا) والفهد (باجيرا) الذي يعلمه حكمة الحياة والدب (بالو).

ويدخل تحتها أيضاً أسطورة (روميولوس وريموس) اللذين رضعا من لبن الذئبة على نهر التيبر، وهما اللذان بنيا روما بعدها، ففي كل هذه القصص نكتشف أن الإنسان الذي ينشأ محروماً من المجتمع ــ في ضوء ما قدمناه ــ من المفترض أن ينشأ (لاشيء) ويصبح (لا إنسان) فالمجتمع في الواقع يشكّل الإنسان ويعطيه البعد الجديد، فلا يكفي أن يولد الإنسان من أبوين منتسبين لمجتمع إنساني كي يصبح الإنسان عالماً ناطقاً متحضّراً، فــ (الثقافة) هنا لا تنتقل عبر الجينات – المورثات– بل هي أمر كسبي بحت، وهي كذلك حتى اليوم، فلابد للإنسان من نشأته ضمن مجتمع حتى ينتقل من ;معادلته البيولوجية+ إلى ;معادلته الاجتماعية+.

وفي الآية القرآنية إشارة إلى هذا المعنى ﴿واللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[النحل١٦/٧٨].

فالإنسان عندما يغادر رحم أمه إلى الأرض الجديدة يحمل الاستعدادات لا أكثر، أو هي على حد تعبير القرآن ﴿وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ﴾[النحل١٦/٧٨]. أو في مكان آخر ﴿ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا﴾[الشمس٩١/٧].

فالنفس الإنسانية لها تشكيلة أو تسوية خاصة بها، فأمامها رحلة تطورية خاصة بها، يمكن أن ترتفع خلالها أو تهبط ، فهذه القدرة (الكمونية ـــ POTENTIAL) هي وضع الفطرة التي أشار إليها الحديث بأن المولود يولد على الفطرة والذي يتدخل في هذا الاستعداد فيشكّل الصورة الجديدة هو المجتمع؛ فالمجتمع هو الذي يمنحنا وجودنا الجديد الذي لا نشعر به بوعي واضح بكل أسف، فنحن ولدنا ولا نعرف كيف تعلّمنا الكلام والتصرّف والسلوك اليومي، ونظن أنّنا غريزيّاً ننظّف أنفسنا، كما تفعل القطة وهي تلحس شعرها، فالذي يريد أن يغيّر المجتمع عليه أن يفهم أموراً حيوية من مثل: ما المجتمع على وجه الدقة وعلى وجه التحديد ؟ وكيف يعمل ؟ وما القوانين التي تتحكم في حركته ؟ وهل يخضع لقوانين عموماً؟ وهل يمشي في حركة رتيبة أو حركة ديناميكية متغيّرة؟؟ وفي ضوء هذه الأشياء يفهم أيضاً مرض المجتمع بالطغيان. ولكن قبل فهم سيكولوجية الطغيان علينا أن نفهم الظاهرة النفسية الاجتماعية.

لقد كشفت الأبحاث (الأنثروبولوجية) أن الفرد لن يستطيع النطق واستعمال اللغة من دون الانخراط في مجتمع، وبحرمانه من تعلم اللغة الأولى لن يقدر على تعلم أي لغة

أخرى، وبالعكس فإن تأسيس اللغة الأولى سيمنحه تعلّم لغات جديدة بلا حدود ، بل إن تعلّم كل لغة جديدة يسهل عليه تعلّم لغات أخرى خلافاً لما يظن البعض أن الدماغ سيحتشد باللغات، بل ويتمكن الدماغ الانتقال بسهولة من لغة إلى أخرى ، تماماً كما في الـــ (دوس ــ DOS) في الكمبيوتر-الحاسب-، فالكمبيوتر يمكن أن يتقبّل أي لغة على الإطلاق، وبذلك أمكن إنطاقه باللغة الإنكليزية والأسبانية والعربية وسواها، وهذا ينطبق أيضاً على العقل الإنساني.

ويبقى السؤال لماذا يعجز الإنسان عن تعلُّم اللغة إذا فاته ذلك في السنوات الأولى من عمره كما حصل مع صبي أفيرون الوحشي الذي تجاوز الثانية عشرة من العمر ؟! .

يرى العلماء أن سنوات العمر الأولى حتى السابعة قبل دخول المدرسة وبواسطة السمع تلعب الدور الحاسم في تثبيت ملكة اللغة عند الطفل ، ولا يعرف على وجه الدقة من الناحية الأنثروبولوجية متى بدأ الإنسان في التصويت واستخدام الصوت في الترميز؟

ولعل حركات أيدينا ووجهنا في أثناء الكلام يوحي بوجود بقايا من تلك اللغة القديمة، وهي اللغة التي يستعملها حتى اليوم (البكم) ، كما أن حنجرة الطفل في السنة الأولى من العمر تشبه حنجرة الشمبانزي، إلا أن التطور البيولوجي بعد السنة الأولية هو الذي يمنح حنجرة الطفل الشكل المتطور الذي يستطيع به التصويت البشري المعهود.

والمدرسة تضيف إلى هذا البعد الأساسي تطويراً جديداً هو تعلّم الكتابة الذي هو اختراع بشري حديث العهد، فالكتابة قام بتطويرها الإنسان منذ حوالي خمسة آلاف سنة، في حين أن التصويت والترميز يرجع ربما إلى مئات الآلاف من السنوات، فاللغة هي أربع وظائف:

أساسيتان: السمع والنطق، وهي التي تعتمدها المدارس الحديثة في إتقان اللغة على وجه سليم.

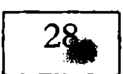
أمّا الوظيفتان اللاحقتان أي: الكتابة والقراءة (بصوت أو من دون صوت)، والوظيفتان الأوليان مرتبطتان بجهاز السمع، والأخريان بجهاز البصر، والأوليان أهم بلا شك، بدليل نمو الإنسان الأعمى خلاف الأصم .

فالمجتمع حين يمنح الطفل اللغة فهو ينقل إليه في الواقع كل محتويات الثقافة، فاللغة هي مجموعة التصورات والمفاهيم، وهي الوعاء الاجتماعي المقدس بكل تراثه وأساطيره وقصصه ومغامراته التاريخية الكبرى، فهي الذاكرة الاجتماعية ، فينشأ الطفل متقناً اللغة ومعها كل المقدسات والمحرمات والقيم العليا الموجهة للنشاط الإنساني .



تجربة الإمام الغزالي القديمة في اكتشاف قانون الفطرة

في الرحلة العقلية التي خاضها الإمام أبو حامد الغزالي في نهاية القرن الخامس الهجري قصة طريفة جديرة بالتأمل بين الحين والآخر، فالرجل في تعطّشه لإدراك الحقائق التي كان مولعاً بها منذ نعومة أظفاره استطاع أن يكسر حاجز التقليد والعقائد الموروثة كما يذكر ذلك بشكل مفصل في كتابه (المنقذ من الضلال) . وتجربته في الواقع جديرة بوضعها تحت مجهر التحليل، فوقف أمام ظاهرة (الفطرة) فقال: ؛..إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصُّر وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهوّد وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال: ؛كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه+، فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليدات الوالدين والأستاذين والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت في نفسي: إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور فلابد من طلب حقيقة العلم ما هي؟+.



فهنا نرى أثر المجتمع في تشكيل عقلية الإنسان وإعطائه المفاهيم الأولية والقيم الأساسية التي ينبني عليها لاحقاً ، وهذه شكلت عند الإمام الغزالي مشكلة عقلية كبرى ، فما دام التلقين يلعب الدور الأساسي في هذه الأفكار كان لابد من نفض هذه الأفكار وغربلتها من جديد، للتأكد من صحة هذه الأفكار قبل كل شيء، لأن التلقين يحمل إمكانية نقل الأخطاء، وهذه مشكلة ضخمة في تقدّم المجتمع أو تحجّره وموته .



ما الذي يفعله المجتمع؟
ما الذي يشكّله؟
ما الذي يمنحه؟

وصل العلّامة ابن خلدون قديماً إلى هذه الحقيقة فأمسك بها وسطرها في مقدمته الشهيرة، ورأى أن ;الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع+.

وعندما أراد تأسيس هذه الفكرة اعتمد قاعدتين، هما: ضرورة اجتماع البشـــر لــ (تأمين الغذاء) و تحصيل (الدفاع عن النفس) كما ذكرنا سابقاً؛ فلا يمكن تحصيل هذين الأمرين من دون اجتماع الإنسان.

وبهذه الفكرة لمس ابن خلدون مفتاح الثورة الزراعية والانبثاق الحضـــاري في كلمته الأخيرة، لأن تحرر الإنســـان من الخـــوف من الموت جوعاً بفائض الغـــذاء كان بعد الثورة الزراعيـــة، الـــتي ولدت مجتمـــع المدينة تلقائيـــاً، التي أفرزت التخصّصـــات، ومنها قيام النظام السياســـي ممثـــلاً في الدولة، التي هي اســـتيلاء شـــريحة من المجتمع على دفـــة القيادة والتي ولدت إشـــكالية تاريخية لا يزال الجنس البشري يعاني منها حتى اليوم، لأن تبادل السلطة السلمي وجو الديموقراطية وتعاون كل شرائح المجتمع في العملية الاجتماعية؛ هي أم المشاكل التي يقوم بتنظيرها الفلاســـفة والمفكرون والمصلحون الاجتماعيون فضلاً عن السياسيين، في محاولة لإدراك الآلية السوية لعملها.



دخول الإنسان مرحلة الخلق الآخر

إذا كان لابد من وجود الإنسان في الجماعة للتأمين (البيولوجي) على الشكل الذي شرحه ابن خلدون قديماً، فإن هذا الانضمام يقود إلى التشكيل الثقافي الإنساني وهو الذي عكفت عليه الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة، فبوساطة اللغة ونظام الرموز دخل الإنسان مرحلة (الخلق الآخر) الذي أشارت إليه الآية، وهذا يقود إلى مفاهيم خطيرة ومزلزلة، لأنه من خلال اللغة يتشكل الإنسان ثقافياً فيأخذ القيم والعادات والدين، وهذا يعني أن حظوظ الإنسان في الولادة في مجتمع ما تعطيه -على الأغلب- تشكيله الكامل بغير وعي منه، بل يتعلّق به ويدافع عنه حتى الموت، ولا يقبل أو يريد تغييره أو تعديله، وعندما ألمس هذا الموضوع مع بعض الأخوة أشعر أن الأرض تميد من تحت أقدامهم ، فلو وُلد أحدنا من رحم امرأة ألمانية أو دانمركية فيا ترى كيف سيتشكل ثقافياً وما الدين الذي سيعتنقه؟

إن فهماً من هذا النوع انقلابي تماماً ويعطي نظرة جديدة إلى الحياة ويبني روح المسؤولية، وجرأة السؤال، وحرية الفكر، وعدم الخوف من البحث وإطلاقة الضمير والتسامح مع التعددية، وهذه الفكرة هي التي زلزلت الإمام الغزالي قديماً حتى كاد أن

يموت، ويئس الأطباء من علاجه، عندما دخل دوّامة الشك فأصيب بالدوار عندما طرح السؤال: أين الفطرة؟ أين العلم الحقيقي؟ ؛إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة حتى أورَثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب، وتعدّى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج، وقالوا: هذا أمر قد نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم+.



ضغط المجتمع وعبقرية الأفراد [هامش الخلاص التاريخي]

وإذا كان المجتمع وهو يعصر الأفراد ضمن قالب المجموع (نظام الجيش) ويشكّلهم على الشكّل الذي يريد، فإنه يستخدم ضغطاً ساحقاً لإزالة أي بوادر انشقاق اجتماعية، فهو يتصّرف كما يفعل الجسم في أثناء نقل الدم أو زرع الكلية.

فالمريض الذي يترف وتصرخ كل خلية بحاجتها إلى الدم قد يصاب بصدمة مزلزلة تقتله إن لم ينقل وفق شروطه البيولوجية الخاصة، وكذلك يرفض الجسم الكلية وهو غارق في الأوساخ والقذارات الذاتية التي تحتاج إلى من ينقيها ويغسل الدم من كل هذه المخلفات اللعينة، يرفض الجسم الكلية إن لم تكن وفق الشروط البيولوجية المناسبة للبدن.

إن الحياة الثقافية هي من نفس النوعية فالمجتمع يحافظ على مجموعة من القيم والأفكار، ويدافع عنها باستماتة أمام أي خطر ثقافي محدق به، بل إن النقل الثقافي من دون شروطه الثقافية قد يؤدي إلى صدمة ثقافية رهيبة.

فكما يرتج البدن وترتعش العضلات وترتفع الحرارة، وتبدأ الاختلاجات من وراء اختلاف زمر الدم، كذلك تحصل التوترات الاجتماعية والثورات الثقافية والزلازل الاجتماعية حين دخول أفكار جديدة لا يتحملها البدن الاجتماعي، وليست ضمن إطار شروط الإدخال الثقافي.

إن فكر المجتمع يتشكل من عطاء الأفراد ونشاطهم وعبقريتهم الخاصة بهم ؛ فهو يستقبل هذه الأفكار ويتبناها، ثم بضغطه الماحق يقوم بتطبيقها على الأفراد ، فليس أمامهم إلا الالتزام بهذه القيم والمحرمات، مع هذا فإن المجتمع لا يتقدم من دون (الطفرات ـــ MUTATION) الفردية في المجتمع.

يقول (بيرسي كوهين) في كتابه (النظرية الاجتماعية الحديثة): ;وطبقاً لهذه النظرية يوجد النظام العام في المجتمع بصورة واسعة نتيجة لممارسة القوة حيث يستلزم إذعان وخضوع بعض الأفراد للبعض الآخر، والأفراد ينفذوا ما يتوقع منهم من أعمال لأنهم أجبروا على فعل ذلك من جانب بعض الأفراد المحتكرين لوسائل القهر والإلزام+ وفي الوقت الذي يشذ فيه الفرد عن محرمات المجتمع يقع تحت قانون (الدجاجة المجروحة).



قانون الدجاجة المجروحة في قن الدجاج وطفرة الأفراد

تروي لنا والدة الدكتور الصناديقي في مدينة الملوي المصرية أن الدجاجة التي تلد البيض فتصاب بأي نزف أو جرح حيث تبصر بقية الدجاجات هذا الدم، فإنها تأتي إلى المكان المجروح فتستمر في نقره حتى تموت الدجاجة المسكينة بيد صديقاتها من نفس مجتمع الدجاج!! لذا تعزل الدجاجة المجروحة فوراً إنقاذاً لحياتها.

والأفراد الذين يشذّون عن القانون الاجتماعي قد يتعرضوا للموت في مخالفة قوانينه، والفرد يستطيع ــ بل يجب ــ أن يتعرّى في الحمام، ولكنه لا يستطيع أن يخطو شبراً واحداً خارج بيته عرياناً!! كل هذا بسبب الأصول التي تعارف عليها المجتمع ونظام المحرمات.

وهو الذي جعل الشريعة الإسلامية تعتمد العرف أيضاً أحياناً مصدراً من عشرة مصادر للتشريع، ولكن المجتمع يسبح في اللحظة الواحدة بين ثبات القيم والأفكار وتطوير الأفكار، وفي ركود الأفكار يتحنط المجتمع ويتحول إلى شكل (مستحاث جيولوجي)!!

فيمكن فهم المجتمع إذن بين الوضع (التشريحي — ANATOMICAL) الراكد (الأستاتيك) وبين الوضع (الفيزيولوجي) المتحرك (الديناميك).

فالمجتمع يبقى على حاله فلا يتغيّر إلى قرون إن لم يقم بعض الأفراد في عمل ريادي لتطوير أفكار المجتمع والتحرّر من الأفكار السلبية الضارة، وهو الموقف الإبراهيمي في النقاش الذي دار مع قومه حين ركبوا رؤوسهم مع كل وضوح الحجة تحت ضغط الفكرة (الآبائية).

فالأفراد هنا يلعبون دور (الطفرة البيولوجية) ولكن في المجتمع، فالطفرة هي ذلك التغّير الطفيف نحو الأحسن في التكيف البيولوجي، وهذا هو قانون انطولوجي وجودي، فالكائنات تتقدم والحياة تتطور، والدول تكبر ويشتد عودها، والجماعات تتسع وتنضج، والحضارات تزدهر وتشمخ، والجنس البشري في مجموعه العام يمشي نحو الأفضل. وكذلك المجتمع فهو من خلال امتصاص وتبني هذه الطفرات الفردية (المجنونة) ؟! يكتب له التقدم ، فسورة ﴿ن والْقَلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ ﴾[القلم٦٨/١] بدأت بكلمة الجنون (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وختمت بكلمة الجنون ﴿وإن يَكَادُ الَذينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويَقُولُونَ إنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[القلم٦٨/٢-٥١].



ما الجنون ؟
ما السحر ؟
ما الشعر ؟
ما الكهانة ؟

ما معنى الجنون؟ ما معنى السحر؟ ما معنى الشعر؟ ما معنى الكهانة؟ إلى ماذا ترمز هذه الكلمات؟

لقد كانت كلها تهم سُلِّطت على نبينا محمد ﷺ!! ونال كل الأنبياء والمصلحين الاجتماعيين ورواد الفكر والفلاسفة والعلماء وأصحاب الأفكار الانقلابية نصيباً من هذه التهمة تزيد وتنقص؟!! لماذا يا ترى وماذا يكمن تحت هذه الكلمات ؟؟!! .

الجنون: هو الانفكاك عن الواقع؟!

السحر: هو التأثير المدهش من دون حدود على العقول!

والشعر: هو ذلك القول المفرز من الروح في غاية الدقة والجمال والتوازن والرشاقة، وكأنه أغنية كونية تنساب من تضاعيف الوجود.

والكهانة: هو القول غير المفهوم، وهي حالة الأفكار الجديدة التي تهجم على العقل فيصاب بصدمة فلا يفقهها من أول نطق.

كان الفيزيائي المشهور (نيلز بور) يناقش زميله الألماني (فولفجانج باولي) عندما شرح له فكرته : ; لا .. لا .. إن الفكرة غير صحيحة، إنها لا تحتوي قدراً كافياً من الجنون!+.

ويجيب (باولي): ; أقسم لك يا سيدي إنها تحمل من الجنون الكفاية!+. ولو لم يُعرج بالرسول ﷺ لينفك عن الواقع ويراه بصورة ثانية لما تهيأ لاستقبال الوحي.

وبعد الاستعراض التاريخي لفك إشكالية الفرد والمجتمع وكيف تورّط الجنس البشري في وضع يديه في القيد الاجتماعي مخرجاً لا مفر منه نكون قد حررنا ثلاث نقاط، ووضعنا أيدينا على العين الحمئة التي ينبع منها الطغيان:

* الإنسان كائن اجتماعي ولا يصبح الإنسان إنساناً من دون مجتمع.

* المجتمع هو الذي يغيّر معادلة الفرد من مادة خام إلى كائن اجتماعي فيتبرمج الفرد، وهنا يبقى هامش الحرية محدوداً وهي مفاجأة لمن لم يشتغل على الموضوع، ويظن أن الفرد يتمتّع بكامل حريته. وهي القضية التي كرّس لها عالم النفس السلوكي (سكينر) كتاباً كاملاً بعنوان (ما خلف الحرية والكرامة) وترجم إلى اللغة العربية بعنوان (تكنولوجيا السلوك الإنساني) ونشر الكتاب في سلسلة كتب (عالم المعرفة) الكويتية.

وسوف أفصل بعد قليل فكرتي عن هامش الحرية الفردية والتطور الاجتماعي وهي فكرة مفصلية تأسيسية.

* الاجتماع الإنساني يشكّل ضرورة. ولكن الإنسان من هذا الاجتماع يستفيد ويدفع ثمناً باهظاً من حريته. ومن هذا الاجتماع غير السار والذي لا مفر منه تمّ تقييد الإنسان وحشره في مجتمعات الديكتاتورية.

وللخروج من هذا النفق سوف أحاول في النهاية أن أشير إلى محاضرة رياض الترك التي ألقاها في مونتريال في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر من عام ٢٠٠٣م وكنت حاضراً فيها، وكتبت عنها مقالة في جريدة الشرق الأوسط بعنوان (سفر الخروج من نفق الديكتاتورية إلى فضاء الحرية) واستعرت كلمة سفر الخروج من خلاص بني إسرائيل من فرعون، وتسجيل ذلك في التوراة بمقطع توراتي متميز بعنوان (سفر الخروج).

ومن عانى من الديكتاتورية يعرف قيمة هذا المعنى. ولذا كانت الكتب المقدسة عموماً كتب تحرير للإنسان ما لم يتدخل على تفسيرها الكهان فيحولوها إلى سجون جديدة من حيث جاءت لتخليص الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية الله رب العباد. وإلّا كيف نفسّر توطّن الديكتاتورية في العالم الإسلامي؟

ولشرح فكرة هامش الحرية وجدلية تطور المجتمع بين الضغط الاجتماعي والإبداع الفردي فسوف أعرض لفكرة السجون الأربعة وهي فكرة متألقة وجميلة.



السجون

الأربعة

نحن نولد مسجونين بحكم مؤبّد في

قفص البيولوجيا، مربوطين إلى سلاسل

النسبية للبعد الرابع (الزمن).

أسرى في أغلال الثقافة وإكراهات المجتمع المتتالية.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾. [الإنسان ٢٩/٢٨]

ندخل أجسادنا فنتسربل فيها محكومين بالجينات تشكّل قدرنا من صحة ومرض وجمال وتشوه.

و(الجينات): هي الشيفرة السرية للخلق تعطينا لون العينين، وطول القامة، وقسمات الوجه، ولحن الصوت، كما تحدد طول العمر من خلال ساعة مبرمجة على رنين منبه الموت مع كل انقسام كرموسومي. والجينات في الخلايا تحدد العمر والاستعداد لمرض السكر والميل للتسرطن وخلل فقر الدم المنحلي.

نحن سجناء عالم بيولوجي بقفل أثقل من نجم نتروني في قدر لا فكاك منه. علينا أن نتنفس وإلا اختنقنا. أن نأكل ونشرب وإلا هلكنا. وأن نمارس الجنس وإلا انقرضنا. يطحننا المرض وتفترسنا الشيخوخة. علينا أن نمشي على الأرض بقانون الجاذبية فلا نستطيع الانتقال بسرعة الضوء في استحالة يفرضها قانون النسبية باستهلاك طاقة لانهائية وتوقف كامل في مربع الزمن.



نحن نرزح تحت ثقل قوانين الفيزياء تحكم بقبضتها على رقابنا في أغلال إلى الأذقان فهم مقمحون. نحن نأتي إلى الحياة دون إرادتنا. ونخرج منها دون إرادة ورغبة بعد أن ذقنا حلاوتها، في نقطة ضعف تسلل منها الجبارون لمسك رقاب العباد.

نحن نولد في (عصر) نعيش ثقافته لا نتحكّم في وقت المجيء إليه في ثانية واحدة منه لا تقديماً ولا تأخيراً، تدفعنا يد جبارة إلى مسرح الأحداث فنشارك على خشبة مسرح، ثم ينتهي دورنا فنمضي وندلف إلى مستودعات النسيان فلا تسمع لهم ركزاً.

اعتبر الفيلسوف الفرنسي (باسكال) أن الإنسان يسبح في اللحظة الواحدة بين العدم واللانهاية، فهو كل شيء إذا قيس بالعدم، وهو لاشيء إذا قيس باللانهاية، وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين؛ فنهاية الأشياء وأصلها يلفهما سر لا سبيل إلى استكناهه، وهو عاجز عن رؤية العدم الذي خرج منه واللانهائي الذي يغمره.

نحن لا نستطيع ركوب آلة الزمن فنعود إلى زمن الأنبياء، كما لا يمكن القفز فوق حاجز الزمن فنعيش بعد ألف سنة. نحن محكومين بأجل لا فكاك منه ، وزمن نعيشه مفروض علينا لا يخترق إلا بطريقة واحدة: الخيال. هكذا تصور دافنشي الطائرة، وكتب جول فيرن قصة عشرين ألف فرسخ تحت الماء، ورفض المسيح عليه السلام مملكة بيلاطس بقوله: ;مملكتي ليست من هذا العالم+.

نحن أسرى (ثقافة) ننتسب إلى حوض معرفي يبرمج عقليتنا، ويمنحنا الدين الذي نمارس طقوسه، ويشكل شجرة المعرفة عندنا

محروسة بلهيب نار وسيف يتقلب. نحن نستحم فنخلع كل ملابسنا، ولكننا في الشارع نلبس كل الملابس. تحت مفهوم اجتماعي هو ستر العورة. المجتمع يمنحنا الدين فنعتنقه.

من يولد في بافاريا في جنوب ألمانية قد يخرج كاثوليكياً، ومن يولد في طوكيو قد يكون من جماعة سوجو جاكا البوذية، ومن يولد في جنوب العراق قد يكون شيعياً.

كذلك كان الانتساب إلى منطقة ما قدراً ندفع فيه الثمن من مصائرنا؛ فمن يولد في الربع الأخير من القرن العشرين في راوندا يهرس كموزة في حقل في الحرب الأهلية. أو يمشي بساق خشبية وذراع معدنية في أفغانستان، ومن كان ألبانياً في التسعينيات من القرن العشرين في كوسوفو يخسر كلّ شيء ليقرر مصيره أساطين السياسة في لوكسمبرغ، أو يعتلي صهوة سيارة جيمس في الخليج ترجع رفاهيته إلى صدفة جيولوجية أكثر من عرق الجبين، ومن يحالفه سوء الحظ فيولد في بعض مناطق العالم العربي قد يكون رهين الاعتقال، لأنه فتح موقعاً للمعارضة على الإنترنيت.لا يرى خروجاً من ظلماتٍ بعضها فوق بعض. يعيش حالة استعصاء ثقافية من دونٍ أمل في الخروج من النفق المسدود، لا يستطيع فتح فمه إلا عند طبيب الأسنان، أو هارباً خارج وطنه بجواز سفر من الدومينيكان أو الأرجنتين، أو لاجئ سياسي في السويد وألمانية، أو مهاجر كندي إذا أسعفه الحظ والمال، أو قد يكون من السعداء النجباء من شريحة الـ ٥٪ له كل المال وكل الامتيازات، يساق له رزقه رغداً بالعشي والإبكار.

مع هذا فإن هامش الحركة في (المكان والفكر واللغة) أفضل من البيولوجيا؛ فقد يفر عراقي إلى بريطانية مبدلاً وطنه، وقد يعتنق فنان بريطاني الإسلام مغيّراً عقيدته، كما قد يتعلّم طبيب أردني يختص في الغرب اللغة الألمانية، ويرتفع الإنسان بالعلم من دون حدود فيتخلّص من الطبقة والفقر.

نحن نظن أننا أحرار في المجتمع، وهذا أكبر من هلوسة؛ فنحن في الواقع مكبّلين بأشد من أصفاد اليدين والرجلين؛ فالوسط ينحت لغة الطفل في تلافيف الدماغ، وآباؤنا يحددون لنا القدر البيولوجي لأجسادنا ومعها المجال مفتوحاً لكل الاحتمالات والاستعدادات، والمجتمع يهبنا المعادلة الاجتماعية بعد البيولوجية، فيجعل من الفرد بشراً سوياً، كما يفرض علينا السلوك السوي، ويعاقبنا إذا خرجنا عن القانون بأشد من معاملة الدجاج وهي تبصر الدم في دجاجةٍ مجروحةٍ فتنقرها حتى الموت.

وعندما يشذ الفرد عن القطيع يعامل بالسخرية والأذى والاتهام بالجنون والنفي على ثلاثة أشكال: من ظهر الأرض إلى الدفن في قبر السجن، ومن دفء الجماعة إلى برد العزلة، أو من شاطئ الحياة إلى سفينة الأموات مع أنوبيس في العالم السفلي.

هامش الحرية كما نرى كالصراط يوم القيامة أرفع من الشعرة وأحدّ من السيف، ونحن نعيش إكراهات متتالية من المهد حتى اللحد، في قبضة (الجينات) وزنزانة (الزمن) وقفص (الثقافة) ومعتقل (المجتمع). نعيش خلف أسوار تطوقها أسوار وقضبان أربع مرات.

مع هذا فلا يتقدّم المجتمع إلا بهامش الحرية الضئيل هذا من خيال الأفراد المبدعين، يتجاوزون بخيال مجنح إشكاليات القضبان والمعتقلات، فيتنسّم في حديقة الدماغ رؤى المستقبل في إمكانيات جديدة واختراعات مبتكرة ونشأة محدثة في تطوّر سفر الإنسان. وعند هذه الزاوية الضيّقة تتشكل جدلية الحركة بين ثبات المجتمع كعلاقات تشريحية وحركته كفيزيولوجيا وتطور.

العقارب تعيش على ظهر البسيطة من دون تغيّر يُذكر في نمط حياتها منذ ٤٠٠ مليون سنة. ولكن الحيوانات محكومة بنسيج فولاذي آسر للتصرفات تعيد دورة إنتاج نفسها برتابة دون أيّ تقدم، مثل القطار المحكوم بالمشي على القضبان لا يخرج عنها إلا إن أراد أن يواجه حادثاً مروعاً.

العجل يمشي بعد الولادة بساعات، والأرانب تنضج في شهر فتسعى، ويبقى الإنسان الكائن الوحيد الأضعف طراً في مملكة الحيوان، ولكن الفرد يمتص خلال سنوات قليلة خبرة كل الجنس البشري المتراكمة في ثلاثة ملايين من السنين؛ فينطق ويحمل الكراهيات وأخطاء الثقافة من خلال ثلاث لغات متتالية (سيميائية) من تكشيرة الوجوه وحركات اليدين و(صوتية) بالصراخ أو الاستحسان وثالثة بـ (الكتابة) وهي القشرة السطحية لنقل النظام المعرفي، وتبقى الطبقات الكتيمة العفوية من التشكل الآركيولوجي الثقافي خلف الكثير من سلوكنا اليومي.

نحن والحيوانات نعيش على ظهر الأرض منذ ملايين السنين ولكن الإنسان وضع قدمه على القمر، ونزلت مراكبه على سطح المريخ، ويرسو اليوم على ظهر الكروموسومات؛ فيكتشف أسرار الشيفرة السرية للوراثة وتصرفاته الحافلة بالأسرار، ويعرف أن ٩٥٪ من حركة الإنسان يقودها (لاوعي) أعمى.

ثقب العين صغير ومنه يرى الإنسان العالم، ومن هذا الثقب لا يرى إلا الضوء العادي في شق ضيّق من عالم فسيح من طيف الموجات، ما يرى منه عشر معشار مالا يرى، لم يكن غريباً أن أقسم القرآن على ما تبصرون وما لا تبصرون.

ومع كل هذه المحدودية للرؤية فإنه يفهم قوانين الكون ويطور ببصيرته بصره فيرى توهّجاً لامعاً للنجوم من عمق محيط الكون على مسافة تسعة مليارات سنة ضوئية ويسحق الزمن إلى الفيمتو ثانية ويكشف عن المكونات دون الذرية من الكواركز واللبتونات ويعرف أن الإنسان بدأ حياته قبل أكثر من سبع ملايين من السنين.

الإنسان كمبيوتر مختزل لكل الوجود في داخله، يحمل إمكانيات تطور دون توقف، نفخ الله فيه من روحه. ففيه شريحة كمبيوترية من روح الله-إن صح التعبير-. مزود بوثيقة وكالة عامة من الخالق لاستخلاف الكون.

كان الفيلسوف إقبال يناجي ربّه حزيناً عندما يرى الظلم الفادح في الحياة وقصور العدالة الأرضية فيقول: ; يا رب هذا الكون لا يعجبني+؟!

فيأتيه الجواب : ;اهدمه وابن أفضل منه+ .

من الجميل أن نذكر التعليق على محاضرة الترك في سفر الخروج من نفق الديكتاتورية إلى فضاء الحرية وهو قد يكون من الأفضل أن يذكر في النهاية عند حل إشكالية الطغيان، ولكن حتى يتمتع القارئ بما حدث في مونتريال من كندا.

وهاهو تعليقي على محاضرته عن سفر الخروج.

.

سفر الخروج من نفق الديكتاتورية إلى فضاء الحرية

قانون التاريخ يمشي بقوته الذاتية ولا يأبه لكل ما نقول. والأمم لا تتعلم بالكلمات بل اللكمات؟

وحاول الكواكبي قبل قرن أن يضع ثلاث معادلات للخلاص من الاستبداد:

* أن الأمة التي لا تشعر بالحرية لا تستحقها.
* أن التغيير يتم بالتدريج واللين.
* ليس المهم استبدال الحاكم بل فرملته.
* ما لم يكن البديل جاهزاً فلا معنى للتبديل. فننتقل من الديكتاتورية إلى الفوضى كما يحصل في العراق حالياً.

والتخلص من الاستبداد هو نصف المشكلة والأهم البديل.

ومشكلة الطغيان هي ليست بقتله لأن من أخذ السيف بالسيف يهلك. ومن أزال القوة بالقوة استبدل فرعون بهامان وصدام بمصدوم.

وفي محاضرة الترك قام شاب فقال: أنا لا أومن بدين، ولكن لا مانع عندي من تولّي الإسلاميين الأمر، ولكنه قد يستبدل السل بالإيدز والصداع بالمغص.

والقرآن أرشدنا إلى أن التخلّص من الطاغية ليست بقتله بل بعدم طاعته.

ولكننا ندخل مشكلة جديدة كما صورها كتاب (جدار بين ظلمتين) للزوجين العراقيين رفعة الجادرجي وبلقيس شرارة، فالرجل اعتُقل بكلمة وأُطلق بنصف كلمة من فم طاغية دجلة.

﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾. [الرعد/٤١] فأصبح مصير المهندس اللامع في السجن يفترسه القمل الأبيض والأسود مما دفعه أن يخلع ملابسه ويلتحف ببطانية قذرة، ولما اهترأ سرواله من الخلف لم يبق ما يحمي عورته من الإمام إلا خرقة بالية.

والطغيان وباء فيقتل الأمة قتلاً. والموتى يبعثهم الله. وإذا أصاب هذا الوباء أمة حوّلها إلى قطيع من البؤساء اليائسين الخائفين المتملّقين.

وهذا المرض ليس عربياً، بل هو إنساني، ويروي (هانس آبل) السياسي الألماني المخضرم عن هامبورج في الحرب العالمية الثانية أن الحلفاء قتلوا في أسبوع بالقصف الجوي ثلاثين ألفاً. وهدمت منازل أكثر من ٨٠٠ ألف من السكان. وعندما حضر مارشال الجو (غورنج) لتفقّد المدينة حيّته الجماهير بالدم بالروح نفديك، فالرعب أخرس الأفواه.

ويبدو أن قانون الطغيان مثل العصور الجيولوجية، فإذا انتهى الأجل ذاب الثلج وبزغ الربيع.

وعندما مات برجينيف لم يصدّق الناس، وعندما انفلت تابوته وهو يدلى إلى حفرته وقع فتحطم فلم يكترث إنسان وألقوه حطاماً. وما حدث للاتحاد السوفييتي الذي وضع في براد الموتى حصل نظيره للأنظمة الثورية العربية التي ماتت اليوم. والبقاء لله العلي القدير.

والديكتاتورية تشبه من وجه الشجرة يسهل اقتلاعها في أول نموها ويستحيل في أوج قوتها ثم تدخل دورة الحياة فتشيخ وتجف فتسقط بضربة صغيرة كما في دابة الأرض التي أكلت منسأة سليمان فخرّ إلى الأرض.



نحن في العالم العربي نعيش حالياً مرحلة انتقال الأنظمة الشمولية إلى خريف العمر. ولا يعني التخلُّص منها أن شمس الديموقراطية سوف تشرق علينا. بل الأرجح أننا سندخل مرحلة الفوضى كما هو الحال في الصومال والعراق وأفغانستان، فلم يبق دولة أو بنية تحتية. وقد يطول هذا قرن من الزمان تنمو خلالها أنظمة راديكالية أصولية تمتاز بالعنف دون القدرة على إنشاء نموذج حضاري.

وعندما تصاب الأمة بالإحباط والفشل تميل إلى التشدُّد من أجل وضع قدمها على أي مربع ثابت في عالم الدوار والاهتزاز. وفي أثناء هذا سوف تدمر إسرائيل بعد أن انتقل الصراع من خارجها إلى داخلها كما في انتقال المرض من التهاب الجلد إلى المغص الكلوي فلا يستويان مثلاً.

وهذا يعني بكلمة ثانية أننا أمام ثلاثة فصول:

انتهاء الديكتاتوريات المتفسّخة حالياً.وسطوع نجم أنظمة شمولية متشدّدة للخارج عاجزة في الداخل. ومعه ستدمر إسرائيل تدميراً. ثم ندخل عصر الظلمات الخاص بنا. ومن رحم الظلمات قد يولد فكر تنويري جديد. وسبحان من يُخرج الحي من الميّت ذلكم الله فأنى تؤفكون.

ومن هذا العرض الفلسفي نخلص إلى أن المجتمع الإنساني يتطور خلاف كل المجتمعات والأمم الأخرى من دواب وطير. والطغيان هو مرض اجتماعي يأخذ فرد أو مجموعة من حقوق الآخرين في أثناء هذا الاندماج الاجتماعي.

وحين تعلن الانتخابات في العالم العربي أن رئيس جمهورية أوحد نال ٩٧٪ من الأصوات دون منافس، فهذا معناه أن الأمة المكوّنة من ملايين الأشخاص أصبح حجمها ٣٪، وأن هذا الفرد الوحيد ابتلع كل الأمة والدولة، وأصبح حجمه ٩٧٪ مقابل الملايي،ن وهو ما يذكر بعالم (جوليفر) العملاق بين الأقزام في دولة (ليلي بوت).

أي إنّ الفرد هنا أصبح ديناصوراً وأن بقية الأمة استحالت إلى نمل وحشرات تدب على الأرض بذل وفقر. وانقلاب النسب بهذه الطريقة لا يبقي الحاكم حاكماً ولا الأمة أمةً. وعندما تكون نسبة انتخابات صدام ١٠٠٪ فهذا يعني أنه مسح الأمة كلية ومن مسح الأمة مسخ نفسه فاستحال فأراً ينتشل من حفرة قذرة.كما كانت قصة اصطياد صدام على الطريقة التي رأيناها على يد الأمريكيين.

وليس الغريب في نهاية صدام ولكن الغريب تطوّع قبيلة كاملة من المحامين الأردنيين للدفاع عن قضية مفلسة مثل الطاغية صدام. وهو يقول: إنّ في صدر الكثير منا صداماً جاهزاً للانقضاض. فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. وهو يقول أيضاً: إنّنا نستحق صداماً.

أو كما يقول (عبد الرحمن الكواكبي) في كتابه (طبائع الاستبداد) عن قوانين تغيير الاستبداد: ;كإن الأمة التي لا تعرف الحرية وتعشقها لا تستحقها+.

وأمام هذه النقطة من الجميل أن نتناول شرح ثلاث أفكار:

- ظاهرة الانتخابات والمؤتمرات في العالم العربي.
- الظاهرة (الصدامية) مئة بالمئة ١٠٠٪.
- أخيراً حقيقة (صدام) وهي رواية كل طاغية في عالم العربان.

وسوف نشرح كل فكرة على حدة.

الانتخابات والاجتماعات والمؤتمرات في العالم العربي

في عام ٣٢٥ للميلاد حصلت أزمة عقائدية في العالم المسيحي بعد فوز المسيحية بالحكم والإطاحة بالنظام القيصري. فبعد أن زال الاضطهاد اختلف حرّاس العقيدة حول الشخصية الجوهرية في المسيحية هل هو إله أم بشر. ومن أجل هذا دعا الإمبراطور قسطنطين لحل هذه الإشكالية إلى مؤتمر في نيقية حيث تركية الحالية، فاجتمعت نخبة الأدمغة العقائدية من الحزب الجديد للتعريف بحقيقة المسيح؟

كان عدد مفكري وقساوسة العالم المسيحي المجتمعين من كل أصقاع الإمبراطورية ٢٠٤٨ مفكراً. ولكن ما خرج به المؤتمر حسب ما جاء في كتاب (تاريخ الأمة القبطية) هو ما قرره سيف الإمبراطور حيث اقتنع بفكرة مجموعة بلغ عددها ٣١٨ تقول: ; إنّ الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرّم كل قول بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه. وأنه لم يوجد قبل أن يولد. وأنه وُجد من لا شيء. أو من يقول: إنّ الابن وُجد من مادة أو جوهر غير جوهر الأب. وكل من يؤمن أنّه خلق أو من يقول: إنّه قابل للتغيير ويعتريه ظل الدوران+.

وبذلك خلقت الكنيسة من البشر إلهاً متعالياً مع أنه لا يوجد نص واحد في الإنجيل يصرّح بهذا.

وهناك من اعترض في المؤتمر مثل آريوس على هذا الاختلاق، ولكنه أُخرس ضرباً بالعصي على الوجوه والأدبار. ثم تمّت إدانته بمجمع لاحق ولوحق وأتباعه وكتبه في كل الإمبراطورية. فهذه هي سخرية التاريخ.

ونحن نعرف في الكيمياء العضوية أن الفرق بين الترياق والسم هو في قلب بسيط في تركيب المادة دون إضافة على المادة. وأن الفرق بين الفحم والسكر والألماس هو طبيعة تراص الذرات الداخلي. ومنه نذوق الحلاوة أو يتلألأ الألماس أو يوسخ الثياب شحار الفحم. والفرق بين البشر والشمبانزي في (الكود) الرمز الوراثي DNA لا يزيد عن ١٪ مع هذا فمن هذا الفرق يخرج بنو آدم مكرمون أو قردة خاسئون.

وفي عام ١٨١٦ م دخل إبراهيم باشا بن محمد علي باشا الذي خلف نابليون في مسك رقاب المصريين فجاءته التعاليم السلطانية من خليفة رب العالمين السلطان العثماني محمود الثاني بالقضاء على الوهابية في جزيرة العرب.

وفي عام ١٧٥٥م اهتزت الأرض في لشبونة ومات في عيد (كل القديسين) بضربة واحدة أكثر من ثلاثين ألف ضحية أوحت لفولتير أن يكتب قصته الرائعة (كانديد) فصرخ المغاربة أن الله انتقم لهم من محاكم التفتيش، ولكن أكبر مسجد في الرباط خرّ على وجهه بنفس الزلزال.

أما البروتستانت في بريطانية فقد أثلج صدورهم ما حصل وقالوا كانت إرادة الله هائلة في البطش بهولاء الكاثوليك. ولكن لم يطل الوقت كثيراً فبعد ١٨ يوماً قُتل من البروتستانت أكثر في مدينة بوسطن بزلزال أعتى.

وفي حرب عجاف دامت ثماني سنوات بين العراق وإيران هلك فيها مليون إنسان وخسارة ٤٠٠ مليار دولار كان صدام يسمي معاركه القادسية والأنفال!!، وكان الإيرانيون يسمونها بدراً وكربلاء!!، وفي النهاية أباد صدام الإيرانيين بالغازات السامة بمساعدة أمريكية في حملة الساجدات العابدات.

والكل يوظف الله سبحانه إلى جانبه مسلحاً بالأدلة العقلية والنقلية، والفقهاء منهم من اشتُروا بدراهم معدودة، ومنهم من لا يفقه من الفقه سوى عمامة كبيرة.

وهناك من رفع اسم الله على علمه، وهناك من احتكر اسم الله لحزبه. والله غير حزبي ولا يعترف بالحزبيين أكثر من كونهم زبراً، كلّ حزب لما لديهم فرحون.

وفي حرب الخليج الثانية اجتمع فقهاء الحركات الإسلامية في جدة وبغداد وكلٌ جنّد الكتاب والسنة في جيشه. ولكن الذي حل المشكلة لم يكن الكتاب والسنة بل روما باللحيونات وصواريخ البلطة.

وفي عام ١٩٧٥ اجتمع الشاه وصدام، وفي جو حميم من العناق والقهوة ووقّعوا اتفاقاً أن يقتسموا شط العرب بينهم بالسوية. ولكن الاتفاق لم يساوي الحبر الذي كتب فيه.

وفي أيلول /سبتمبر من عام ١٩٨٠ م زحفت ١١ فرقة عسكرية إلى إيران من أصل ١٢ فرقة يملكها العراق على أمل أن يصبح بطل الأمة العربية، ولكنه كتب الآن في الأذلّين، ويوم القيامة هو من المقبوحين.

وعندما دعا محمد علي باشا المماليك إلى سهرة عائلية لم يرجع منهم أحد إلى عائلته.

وعندما زحف أبو ليث الصفّار باتجاه بغداد وكان زعيم العيّارين في خراسان قيل له: اتق الله في بيعة الخليفة، فنادى أحد أصحابه الأشقياء فقال: هات لنا عهد الخليفة نقرأه على الناس، فأحضر له سيفاً ملفوفاً بخرقة فأشهره ثم صاح هذا ما أجلس الخليفة في بغداد على عرش الخلافة، وهو الذي جعل منّي سيد العيارين.

وفي عدن ذبح الرفاق الرفاق في اجتماع حزبي، ومن تبقّى خرج يزحف كالسلحفاة.

وفي بغداد قتل صدام كل القيادة الحزبية من الرفاق المناضلين مصوراً بشريط فيديو مثل حفلات أعياد ميلاده.

وعندما اجتمع صدام مع الملّا مصطفى البرازاني لحل الخلافات نشبت المعركة في نفس الغرفة بالقنابل والسكاكين ونجا البرازاني بأعجوبة.

ولم تجتمع قريش في تاريخها إلا لقتل النبيﷺ، ولم تحصل وحدة عربية إلا في معركة الخندق لإبادة الإسلام وأهله.

يقول ابن خلدون في (المقدمة): ; إنّ الخراب يسرع إلى الأمصار إذا وضعت العرب يدها عليها+. وهو حكم لا يخلو من عنصرية، ولكن الرجل عالم اجتماع يجب الاستماع لرأيه ..

ولا ننسى يوم دعا حاكم عربي صدام إلى الاستقالة ولكن يجب أن يطبق الآية القرآنية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة/٤٤] فيجب أن يستقيل حكام العرب أجمعون.

ولكن الاستقالة تعني كامل الفوضى فيما لو طُبّقت ولن تقع.

ومنذ العصر العباسي وصل الفقهاء إلى مخرج للأزمة السياسية فقالوا: ;حلال على الشاطر!!+ فمن يستطيع التغلب وقهر العباد ركب على ظهرهم حتى يأتي من يتغلّب أكثر بعصبية أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً. وهو الكلام نفسه الذي كرّره عزيز في العراق: نحن قوم ثوريون وصلنا إلى الحكم بالدبابة والبندقية فمن يريد أن يجرّب حظه فليتفضّل.

وحاصل هذا الكلام أن الانتخابات مهزلة. وأن المجالس نكتة كبيرة لا يضحك لها أحد. وأن القواعد توضع لخرق القواعد. وأن الاجتماعات تستخدم لمنع أي تجمع. وأن المؤتمرات تعقد للتآمر. وأن توظيف النصوص لحل المشاكل لا يقترب إلا بعداً عنها. وأننا أمّة أمّية نخضع للسيف ونعبد القوة. وأننا في زمن التيه التاريخي. ﴿وإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ومَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن والٍ﴾. [الرعد/١١]



مئة

بالمئة؟

جاءت نتيجة الانتخابات الرئاسية في

العراق في خريف عام ٢٠٠٢م مئة بالمئة.

هذه المرة ليس ٩٩,٩٩٪ وليس ٩٩,٩٧

بل تم تدوير الرقم حرصاً على الكمال إلى مئة بالمئة. وهو مؤشّر خفي إلى أن اكتمال الأشياء هي بداية النقص. وعندما يكتمل البدر فهو في طريقه أن يصبح كالعرجون القديم. وقبل السقوط تأتي الكبرياء.

ومن يغفل عن سنن الله فإن سنن الله لا تغفل عنه. وعندما يأذن الله بموت الأمم فلها ثلاث نهايات: اجتياح خارجي، أو تحلل داخلي، أو تجمد في مربع الزمن.

نحن نعرف أنه ليس هناك (انتخابات) في العالم العربي، بل مبايعة الخليفة (القاهر) للعباد في حضور المخابرات.

نحن نعرف أنها (مهزلة)، ولكن الكوميديا لون مسرحي يحضره الناس منذ أيام بركليس في أثينا.

نحن نعلم أن الأنظمة الثورية تحوّلت إلى ملكية، وهي ليست مرض العراق فهناك من سبق العراق إليها. والكلّ يتلمّظ في العالم العربي أن يبني سلالات حاكمة مثل أليخانات أباطرة المغول.

ومن الغريب في هذه الكوميديا أن هناك حرصاً على الديكور في إخراج السلطان بلباس جمهوري كمن يريد من اللص أن يرتدي عباءة النبيﷺ.



نحن نعرف أن العالم العربي يمشي على رأسه من دون أن يشعر بالدوار. ونحن نعلم أن من يمشي على رأسه يفقد رأسه ورجليه معاً.

ونحن نعلم أن العراق مسموح الحديث عنه فهو مستباح، ولكن المرض العربي واحد مثل حمى الدماغ الشوكية فمنهم من يصاب بالخرس وآخر بالعمى وثالث بالجنون.

مع هذا فهي ظاهرة جديرة بالدراسة أكثر من الحزن أو الضحك أو الشتم. والأطباء يفرحون عندما تأتيهم حالات (مثيرة) وهي لصاحبها مصيبة مثل سرطان المستقيم أو شيخوخة البروجيريا.

وكما يهتم علماء الطبيعة والحيوان بدراسة الظواهر الفيزيائية الشاذة، والحيوانات المنقرضة، والقبائل البائدة، واللغات المختفية. كذلك فإن العالم العربي يشكّل ظاهرة فريدة جديرة بالدراسة مثل دراسة الماموت أو أفاعي الأناكوندا ولهجات أهل الأسكيمو وحجر رشيد.

إنها فرصة تاريخية كما نرى لتأمُّل المجتمع العربي بعد أن حافظت أمريكا على الأوضاع كما يفعل علماء الطبيعة بالحفاظ على بقايا الخرتيت في كينيا، وتخصيص سفاري لها خوفاً من الانقراض. والمجتمع العربي اليوم هو في حالة سفاري تسرح فيها بقايا حيوانات ضارية محمية بأسلاك أمريكية.

والسؤال: لماذا يحدث استعصاء تاريخي في مسيرة مجتمع فيتوقف في مربع الزمن أيام الفرعون بيبي الثاني؟

إن المشكلة ليست في العراق. وإذا كان العراق قد انفرد برفع نسبة الانتخابات إلى المطلق فإن غيره يتلاعب أيضا بما يحلو له .

وعندما يتضخم الحاكم إلى هذا الحجم الفلكي فإنه يعني آلياً انكماش الأمة بالاتجاه المعاكس.

وإذا كانت نسبة الانتخابات لشخص واحد فرد ٩٩٪ فهو يعني أن الأمة انكمشت إلى ١٪. وعندما يقفز السلطان إلى المطلق فإن الأمة قمبط إلى الصفر. والصفر يعني العدم في الرياضيات. والصفر رياضياً لا يتمتّع بأي قيمة رياضية. وحاصل ضرب الصفر بالصفر يعني صفراً. والصفر يعني العدم، والعدم يعني الموت للأمة. وعندما نرى النسر الأمريكي يحلق في الأفق فلأنه رأى جثة عند بابل.

هذه المسألة حيّرت كل من درس المسألة الإنسانية. كيف أن شخصاً واحداً يتسلّط على رقبة أمة تعد بالملايين؟

في عام ١٥٦٢م كتب شاب لا يتجاوز عمره ٢٨ سنة هو (أتيين دي لابواسييه) مخطوطة عجيبة يفكك فيها آلة الطغيان، كما يفعل ميكانيكي السيارة بتتريل الموتور-المحرّك-.

كيف يبدأ الطغيان؟ كيف يتطور؟ كيف ينتهي مثل دورة أي مرض في الطبيعة سواء ذباب الخل أو أنفلونزا عام ١٩١٨ م التي فتكت بــ ٣٠ مليون إنسان من دون معرفة المسبب.

يقول (اتيين دي لا بواسييه): إن الحرية ميّزة الحيوان قبل الإنسان، وما يحدث أن الفرَس الجموح وبالترويض يستبدل تمرده بالانقياد فيباهي بسرجه واللجام.

وفي منظر عجيب كان المقترع العراقي بأسماله يلقي بورقة، إلى جانب سيارة ابن الرئيس بلون دموي يمشي فيها بين جموع فقيرة، يطردها عن السيارة زبانية غلاظ شداد مثل طرد الذباب عن القطر.

وفي يوم كان غاندي يدخل على ملك بريطانية بخرقة يلف بها حقويه، كما فعل من قبل يوحنا المعمدان، فقيل له: لو لبست غير هذا لمقابلة الملك؟ قال: جئت أمثّل شعباً عارياً فاستحيت أن أرتدي وهم عراة. مع هذا فإن الملك كان يلبس ما يكفينا نحن الاثنين.

يقول (لا بواسييه): إن الحاكم شخص واحد محدود القوة العضلية فلو دخل عليه ثلاثة رجال لأحدقوا به وكتفوه، ولكنّه يمتلك من القوة السحرية ما يرسل الناس إلى الموت. فمِن أين له كل هذه القوة؟

يجيب (لا بواسيه) عن هذا السؤال المحير بقوله: ; إنّ نظام الحكم ليس فرداً بل عصابة+. وبتعبير القرآن: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ولا يُصْلِحُونَ﴾[النمل٢٧/٤٨].

وهذه المجموعة هم أذرع الجبّار، لها امتداد جهنّمي مثل الشبكة العصبية في الجسم. فكل واحد من مجلس العصابة مرتبط بعشرة يأتمرون بأمره، وهم بدورهم مرتبطون بأعداد أكبر منها كلما نزلنا في السلم الجهنّمي للأسفل. فإذا سرح الخيال بنا تبيّن لنا أن الطاغية يمسك في يده خيوط شبكة كاملة تتوتّر بحركة خفيفة من أصابعه، كما نحرك أعظم جهاز بكبسة زر. ومنه نفهم كيف أمسك ستالين بالشعب الروسي، وهتلر بنصف أوربة، وجنكيزخان بمعظم العالم.

ولكن هذا التفسير هو القسم الأسهل والأصغر ويبقى الجانب العظيم والمخفي وهي كيف تتحكّم أقلية سخيفة بأكثرية ساحقة؟

هنا يأتي القرآن فيطرح قانوناً ثلاثي الأبعاد:

- أن الشيطان ليس له سلطان على العباد، ويدخل تحته أي قوة سواء كانت أمريكا أو الصهيونية أو أي قوة طاغوتية. فالإنسان خلقه الله محرراً من علاقات القوة. وهذا يعني أنه لا يوجد شر في العالم يملك سلطاناً ذاتياً.
- وثانياً: أن البشر يتّبعون الانحراف بإرادتهم.

■ وثالثاً: أن هذا يحدث بضعف الوعي على منحنى طردي يزداد اتساعاً وكثافة وانحرافاً بقدر غياب الوعي.

وهنا يجتمع (بواسييه) مع السر القرآني في أن إنهاء الطغيان ليس في قتل الطاغية بل ممارسة العصيان المشروع. فنطيعه في الطاعة ونعصيه في المعصية.

وهذا يدخلنا على مفهوم (الكواكبي) أنه لا حاجة لتغيير الحاكم، بل فرملته. وهذا يدخلنا على مفهوم (التحدي الأرسطي) أن نغضب من الشخص المناسب بالقدر المناسب في الوقت المناسب وللهدف المناسب.

وعند (هادفيلد) من علماء النفس أنه لا يوجد (خطيئة ذاتية) وهو يذكر بالعمل الجنسي، فهي غريزة تنفع في توليد الحياة كيفما مشت، ولكنها خطيئة في الزنا.

وعلم النفس يرى: ; إن (الشر) ليس أمراً موضوعياً، بل هو وظيفة خاطئة، والوظيفة الشريرة هي استعمال اندفاع خير في وقت خاطئ في مكان خاطئ نحو غاية خاطئة+.

وبالنسبة للطب النفسي لا يوجد رذائل في ذاتها بل ;فضائل منحرفة+ أي بكلمة ثانية: ;الشر مثل القذارة مادة في غير مكانها+.

الطغيان في العالم العربي بكلمة ثانية (مناخ) مريض يحتاج إلى العمل لتطهيره. كما نكافح الكوليرا بالنظافة. وكل منّا يحمل وحشاً في داخله. وكل منّا (كمونياً) صدام. والذي أفرز صدام المناخ المريض. وهو لا يزيد عن خلية مريضة من نقي عظام مريض من ثقافة مريضة. وتغيير (صدام) لن يغير المناخ.

والركض خلف البعوض لقتلهم عبث ما لم نردم المستنقع.
﴿والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإذْنِ رَبِّهِ والَّذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً﴾. [الأعراف ٧/٥٨]

ولو جلس الناس في العراق في بيوهم فلم يترلوا للانتخاب المزعوم ما كان صدام فاعلاً بهم؟ لقد شاهدت الناس وهم يزحفون للاقتراع تحت سحر عظيم وهو أنه يجب أن يذهبوا ويجب أن يكتبوا نعم. مع أن الورقة تحمل لا ونعم؟

إننا نعيش عصر السحر. ﴿واسْتَرْهَبُوهُمْ وجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾. وأمريكا هي الساحر الأعظم. وعندما يكون الوعي في إجازة فإن حبالهم وعصيّهم سوف تسعى، إلى حين مجيء موسى.

جاء في كتاب (خرافات الهند) أن حماراً فقد ذيله في حادث ذات يوم فكانت مصيبة أليمة أغرقته في الأحزان. وراح يبحث عن ذيله في كل مكان معتقداً أنه يمكن إعادته إلى مكانه. وأخيراً مرّ بمرج أخضر فدخل وهو يظن أنه سيعثر على ذيله المقطوع. ولكن البستاني ارتاع من التدمير الذي أحدثه في نباتات الحقل فاستشاط غضبا وهجم على الحمار فقطع أذنيه وضربه وأخرجه من الأرض.

وهكذا فإن الحمار الذي كان يندب ذنبه رجع أصلم من دون أذنين. فكان في وضع متحمل فأصبح سخرية للعالمين.

وما يصدق على الحمار والبستاني يصدق على العرب هذه الأيام.

حقيقة صدام

احتار سياسيو العالم العربي في تفسير شكل صدام المهين بعد إلقاء القبض عليه في ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣م فقالوا: إنه ليس هو. وقالوا: إنه مخدر. وهو ليس بذا ولا ذاك. والحيرة تأتي من الجهل.

وليس هناك أكثر خوفا وضلالاً من الجاهل.

وكما يقول عبد الرحمن الكواكبي: ;إنّ العوام إذا جهلوا خافوا. وإذا خافوا ملكهم الطاغية+. وهو ما فعله صدام بأهل العراق. ولم يتغير الوضع كثيراً بعد رحيله فما زال من يزعق باسمه بالدم بالروح نفديك يا أبو الجماجم. وهو ليس الوحيد من الغربان في بلاد العربان. وبين العرب والعلم مسافة سنة ضوئية. يسبحون في بحر طام من الأميين يبلغ سبعين مليوناً من الأنام.

والصراع بين العلماء والمستبدّين هو مثل جدلية الظلام والنور. فالعلماء يعلمون الناس فيتحرروا من الخوف. والطغاة يخرجونهم من النور إلى الظلمات فيخافوا ويجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الموت والله محيط بالكافرين.

وما لم نسلط ضوء العلم على نفسية صدام فلن نفهمه. والأطباء في المخابر يلجؤون إلى المجاهر لرؤية الجراثيم. وقد كان حزبه خطير لنمو جراثيم معندة من نوع صدام.

وإذا كان صدام قد أباد أهل حلبجة بالكيمياوي فسقطوا مثل الذباب، فإن غيره على جهوزية لتنفيذ أكبر من ذلك .

ولذا يجب استخدام مجموعة من العلوم الإنسانية والكونية والبيولوجية (الظاهرة الصدامية).

و(علم النفس) يقول: إنّه بقدر جبروت الطاغية بقدر هشاشته الداخلية. وبقدر التماعه الخارجي بقدر انطفائه الداخلي. وبقدر مظاهر الصحة العارمة بقدر الاستعداد للانهيار. ونزلت سورة كاملة في القرآن للمعارضة باسم (المؤمن) . ولذا كانت المعارضة صحة وإيمان للجميع. والمعارضة مثل الفرامل في السيارة. ولكن سيارات العالم العربي السياسية مصممة من دون فرامل فهي تخرج من كارثة لتدخل كارثة. وما العراق عنا ببعيد. والمستكبِر (بالكسر) هو الوجه الآخر للمستضَعف(بالفتح) بتعبير (القرآن). ومن مرض بالاستكبار حمل بذرة الاستضعاف في أعماقه. وكلًّا من المستكبِر والمستضعَف من فصيلة واحدة. ويوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً.

والصورة الملونة أصلها أسود. وجايكل وهايد شخصيتان متناقضتان اجتمعتا في رجل واحد. مثل وجهي القمر فوجه مضيء يغلي بحرارة ١٥٠ فوق الصفر ووجه مظلم بارد ١٥٠ تحت الصفر، وكلا الوجهين لا يصلحان للحياة.

والطاغية وحش مرعب ولكنه في حقيقته صعلوك حقير. ومن احتقر الناس احتقر نفسه. ومن وظّف المجرمين قلب المجتمع عاليه سافله فلم يظهر على السطح إلا السفلة الأوغاد.

وخسف بالمجتمع في ليل التاريخ. كما حدث في ديكتاتوريات الخوف من جمهوريات القلق. وحينما ينهارالجهاز المناعي تنشط الجراثيم من كل صنف زوجان.

والطاغية يشبه الشاذ جنسياً فهو سادي ومازوخي بالوقت نفسه. فلا يلتذ إلا بالعذاب والتعذيب. ومن انحرف فقد توازنه فعاش على الأطراف. ونيرون أحرق روما، ولكن لم يكن عنده من الجرأة أن يقتل نفسه حينما أحدق به الناس فقتله خادمه.

والطاغية ليس رجل مبدأ ليموت من أجل مبدئه، بل هو متعلق بالحياة أكثر من حرص الضفدع على حياة المستنقع. ولذا سلّم صدام نفسه. و لم يكن صدام ليتمنّى الموت بما قدمت يداه والله عليم بالظالمين.﴿ ولَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة٢/٩٦].

ومن يقتل أصهاره يجعل من بناته أرامل ومن أحفاده أيتاماً. و؛من لا يَرْحَم لا يُرْحم+. وحسب شهادة جمال المجيد - وفي عائلة المجيد نشأ صدام- فقد أباد صدام كل عائلة المجيد فقتل الوالد وثلاثة من إخوانه وأخته وفي النهاية أرسل من ذبح والدته من الوريد إلى الوريد.

والسلطة تميل إلى الفساد، وقليل من السلطة تعني قليلاً من الفساد. وسلطة مطلقة تعني فساداً كاملاً وظلاماً دامساً ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾.[النور/٤٠] وحينما يخسر الإنسان نوره الملائكي يستبدله بظلمة الشياطين. ومن باع نفسه للقوة ارتهن للقوة، فيصبح إلهاً

مع امتلاك القوة لا يسأل عما يفعل وهم يسـألون. و يتحول إلى عبد ذليل ميت بسحب القوة منه كما تفقد البطارية شحنتها فتلقى في المزابل.

ولب التوحيد هو التخلص من (ذهان القوة) وهي القضية التي من أجلها جاء الأنبياء وبعثوا، فلم يأتوا لتعليم مسائل أكاديمية، بل لإخراج نموذج جديد لا يركع للقوة ولا يحرص على امتلاكها. كما جاء في الحديث النبوي: ; إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة+.

والغرب حلّ أعظم معضلة سياسية وهي مركزية السلطة، فسحبها من أيدي البشر وحرّر المجتمع من الوثنية السياسية. وشيراك اليوم صديق صدام الحميم لا يمنعه في فرنسة أن يكون مثل صدام لولا الشعب الفرنسي. والسلطة ألذ من كل اللذائذ مجتمعة، لأن فيها سر الألوهية.

والملكة فكتوريا كانت تتمنى أن تحكم مثل الباديشاه العثماني، ولكن حجزها البرلمان البريطاني بعد أن طار رأس الملك تشارلز عام ١٦٤٩ بحد السيف على يد كروموبل فلا داعي للتكرار.

وعندمـا ننضغـط نقـول: إن هذه الأشـياء موجودة في ديننا، وأن الشورى أساسـية في الإسلام. ونحن لم نشم رائحة الشورى لحظة في تاريخنا.

والمشروطية التي نادى بها رجال الإصلاح في العراق في مطلع القرن الفائت لم تأت إلا من خلال الاحتكاك بالغرب. و لم يكن عبد الرحمن الكواكبي ليكتب كتابه عن طبائع الاستبداد لولا احتكاكه بفكر الثورة الفرنسي.

والتحليل النفسي يجعلنا نفهم لماذا ظهر صدام البطل في منظر البؤساء. كما يجعلنا نفهم سطحية أكثر العقول السياسية العربية التماعاً في المحطات الفضائية حينما قالوا :إن هذا ليس صداماً أو أنه مخدر.

والحقيقة أنه صدام وليس مخدراً، ولكنه طاغية انكشف فيه جانب الحقيقة الثاني، فرأينا صداماً من دون سلطة لأول مرة. وكنا نرى من قبل صدام وهو في السلطة. فهو قاتل ومسكين، وجبّار وتافه.

وعلم النفس يخدم كثيراً في فهم سلوك البشر وتصرفاتهم. ومن ارتبط بالعلم فهم الظواهر أفضل. وبين أهل السياسة والعلم سنة ضوئية.

تقول الأسطورة: إنّ خلدان كانا يمشيان في الغابة فصاحت بهما البومة قفا مكانكما؟ فتعجبا وقالا: هذا أمر عجاب فلا أحد يرى في الظلام. فصاحت البومة من جديد: أنتما الاثنان. فرجع الخلدان إلى حيوانات الغابة فقالا: إن البومة سيدة الحكمة فهي ترى في الليل. ثم إن طيراً أراد التأكد فذهب وأخفى مخالبه، وقال: كم مخلباً لي. قالت البومة: اثنان. فرجع الطير إلى حيوانات الغابة فقال لا شك أن البومة إلهة فهي ترى في الليل. قال ثعلب: ولكن هل ترى في النهار مثل الليل؟ نظر إليه البعض وقالوا: أيها الصفيق وهل هذا يحتاج إلى سؤال؟ ثم إن حيوانات الغابة طردته وأشياعه من المشاغبين وارتاحوا من المعارضة.

وتوجه وفد إلى البومة فطلب منها أن تكون ملكة للغابة. فلما وصلت كان النهار في أشدّ توهّجه فبدأت تمشي ببطء فمنحها وقاراً أكثر. فصاحت حيوانات وطيور الغابة: إنها إلهة،

بالدم بالروح نفديك أيتها الزعيمة الملهمة. ثم سارت الجموع خلف البومة التي كانت تترنح وتصطدم بأشياء كثيرة فكانت الجماهير تكرر نفس الخطأ وتهتف بحياة القائد المهيب.

وأخيراً كان الموكب يمشي في طريق عريض فجاء صقر يحذر من قدوم شاحنة في الاتجاه المعاكس. فنظر طير إلى البومة وحذرها فقال لها: ألا تخافين؟ قالت: ولم الخوف أيها الجاهل؟ فصاحت الحيوانات إنها لا تخاف إنها إلهة؟ وكانت البومة مطمئنة لأنها لم تر الخطر. وكان جمهور الغابة لا يكف عن الصياح بحياة الرئيس بالدم بالروح نفديك حينما صدمت الشاحنة الجموع فدهست معظم المغفّلين وهرب بعض المجروحين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.[الشعراء/٨]

فهذه هي قصة صدام والجمهور العربي وأمريكا.

وهكذا نكون قد حررنا مما مر ثلاث نقاط، ووضعنا أيدينا على جذور الاستبداد التي ينبع منه الطغيان.

❋الإنسان أولاً كائن اجتماعي. والمجتمع هو الذي ينقل الإنسان من معادلة الفرد إلى الكائن الاجتماعي. والاجتماع الإنساني ضرورة.

❋والمجتمع الإنساني يتطور خلاف كل الأمم الأخرى من دواب وطير.

❋والطغيان هو مرض اجتماعي بأخذ فرد أو مجموعة من حقوق الآخرين في أثناء هذا الاندماج الاجتماعي.

وحين تعلن الانتخابات في العالم العربي أن رئيس الجمهورية المرشح الأوحد للانتخابات قد نال ٩٧٪ من الأصوات من دون منافس واحد فهذا معناه أن الأمة المكونة من ملايين الأشخاص أصبح حجمها ٣٪ وأن هذا الفرد الوحيد ابتلع كل الأمة والدولة وأصبح حجمه ٩٧٪ مقابل الملايين، وهو ما يذكر بعالم جوليفر. أي إن الفرد هنا أصبح ديناصوراً و بقية الأمة استحالت إلى نمل وحشرات تدب على الأرض دبيباً! وانقلاب النسب بهذه الطريقة لا يبق الأمة أمة ولا الحاكم حاكماً. بل يحول الأمة إلى قطيع من العبيد والحاكم إلى إله لا راد لحكمه الواحد القهار؟ وعندما تكون نسبة انتخابات صدام المصدوم ١٠٠٪ فهو لأنه مسح الأمة كلية إلى الصفر، ومن مسح الأمة مسح نفسه فاستحال فأراً يُنتشل من حفرة قذرة؟

وأمام هذه الورطة من التطور الإنساني ودّع الإنسان الغابة وسلّم رقبته للأنظمة السياسية، ولكن لولا وجود الدولة ما طعم الإنسان من جوع، ولا آمن من خوف، فهذه حقيقة اجتماعية. وهذا هو المبرر الأول لوجود الدولة: (الأمن) ومن (الأمن) تتولد (الحريات).

ونحـــن هنا في ظـــل مثلـــث بثلاث أضـــلاع يضم (العدل -الأمن- الحريات) في مركـــب متبادل التأثير. وتحت مظلة الأمن ولدت الحضارة في المدينة. ولكن الأمن بدوره يقع في ضلع مـــن مثلث يضم العدل والأمن والحريات كما ذكرنا. وبقدر العدل بقدر الأمن، وبقدر الأمن تنمو الحريات.

وهو ما جاء في حُجة إبراهيم عليه السلام حين قال: ; إنّ الأمن يتبخر مع الظلم+.﴿ الَذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبسُوا إِيمَانَهُم بظُلْم أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُّهْتَدُونَ وتلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام٦/٨٢-٨٣].

وحسب إحصائيات المؤرخ البريطاني (جون آرنولد توينبي) فليس هناك الكثير من الحضارات التي انبثقت في التاريخ بينما ظهر على الأرض العديد من المجتمعات البدائية قدّرها توينبي في حدود ٦٠٠ مجتمع بدائي. وكانت الحضارة تولد من الحضارة. ولم تولد الحضارة الأوربية من دون أب وأم، ولكن الأوربيين يفضلون لأنفسهم أن يبقوا من دون أب مثل الولد اللقيط وأبوه الحضارة العربية وأمه الحضارة الأغريقية.

ويرى توينبي أن ما لايقل عن ٣٢ حضارة بزغت في التاريخ، ولم يبق منها سوى خمس، واحدة منها الحضارة الإسلامية.

ويرى أن الحضارات القديمة لم تكن تتراءى أو تعرف عن وجود حضارات أخرى شيئاً. وأن حضارة الصين لم تكن تعلم شيئاً عن حضارة الإنكا في البيرو. وأن (كريستوبال كولون) المعروف باسم كريستوف كولمبس ذهب إلى الغرب وظنّ حتى موته أنه اجتمع بالهنود ولم يخطر في باله أنه ضرب ضربته التاريخية بتمليك الغرب ما يزيد عن ضعفي مساحة القمر؟

وسمى الغربيون أمريكا الأرض المكتشفة وكان فيها ثلاث حضارات اعتبرها المؤرخ الألماني والفيلسوف شبنجلر أنها كانت أفضل في جوانب منها من كل الحضارة الأوربية التي جاءت تزعم اكتشاف أرض جديدة وهي عامرة بالسكان بأكثر من سكان أوربة. ولكنها المركزية الأوربية وقلة العقل.

وينقل لنا الراهب الأسباني (لاس كاساس) أخبار الفتح المبين والفظاعات التي قام بها الأسبان، وكيف تمّ إبادة ثمانين مليون نسمة في الأمريكيتين، ولم يكن يزيد عدد سكان أسبانيا يومها عن خمسة ملايين نسمة. وعندما وضعت بريطانية يدها على جزيرة كوبا لم يبق من أصل ٢ مليون نسمة من شعب التاينو سوى مئتي شخص حسب إحصائيات أستاذ السوربون (تزفتيان تودودورف) في كتابه (مسألة الآخر واكتشاف أمريكا).

وهذه النقلة من (مجتمع الغابة إلى مجتمع الدولة) كان باتجاه واحد لا رجعة فيه. ولكن بكلفة عالية من حرية الإنسان كما يقول (جان جاك روسو) في المقالة التي نال عليها جائزة جامعية عن أفضل مقالة بعنوان(هل كان التقدم الإنساني في خدمة الإنسان والأخلاق؟) حيث رأى (روسو) أن الإنسان يولد حراً ومتساوياً مع الآخرين في كل مكان. ولكنه في كل مكان يعيش مكبلاً بالأغلال (فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. فهل إلى خروج من سبيل)؟؟

والعلماء لم يختلفوا على شيء مثل الاختلاف حول سبب الطغيان. وفي كتاب (الطاغية) لإمام عبد الفتاح إمام، سرد موسّع لكل النظريات بين فلسفية (هيجل) واقتصادية (كارل فيتفوجل) ونفسية (إيريك فروم) وصوفية (الغزالي)، وتورط أرسطو في السبب العرقي الجغرافي بأن الطغيان مسألة شرقية فكما ترسخت البلهارسيا في مصر، والطاعون في الهند، والملاريا في روما القديمة، فالطغيان من وجهة نظره أصلها شرقي، وانتشاره شرقي مثل الأمطار الموسمية، ولكننا نعرف أن الطبيعة غير الثقافة، وأنّ روما تخلصت من الملاريا، وأنّ حدة البلهارسيا والطاعون انكسرت في مصر والهند.

وعندما يذهب (كارل فيتفوجل Karlwittfogel)
إلى ربط الطغيان بالتجمعات الإنسانية حول الأنهار الكبرى لا يستطيع تفسير الطغيان في فرنسة حين قال لويس الرابع عشر: أنا الملك أنا الدولة.

ومن القصص العجيبة التي رواها عنه (روبرت غرين) صاحب كتاب (ثماني وأربعين قاعدة في لعبة القوة) أنه بعد أن استضافه وزير المالية (ميشيل فوشيه) في حفلة رائعة أرسله في اليوم التالي إلى الحبس الأبدي بسبب بسيط أنه سمح لنفسه في تلك الليلة أن يلمع أكثر من الملك الشاب، فكلفه هذا أن ينام في قصره الجديد ليلة واحدة فقط ليبني ملك الشمس بعدها قصور فرساي على نفس الطراز من دون خوف أن يعتقله أحد؟

وفي قناعتي فإن أسباب ولادة الطغيان ثلاث:

- فيزيائي.
- وبيولوجي نفسي.
- وأنثروبولوجي.

ولشرح هذا نقول:

إن ولادة الدولة كان معناه فك النزاعات بين الأفراد حتى يعيشوا في انسجام في وضع محتمل، ولكن هذا معناه نزع السلاح من يد الأفراد واحتكار القوة بيد الدولة. والدولة كانت عادة في يد فرد أو حزب أو طائفة، وهذا يعني تلقائياً ولادة الطغيان، لأن القوة كما يقول اللورد (أكتون) تميل بطبيعتها إلى الفساد. وقليل من السلطة يعني القليل من الفساد. وسلطة مطلقة تعني فساداً مطلقاً.

ولكن لا بد من نشر الأمن بين الأفراد حتى تبنى الحضارة فلا يمكن بناء عائلة أو ممارسة التجارة أو طبع الكتب أو قيام البرلمانات إلا في مظلة الأمن الاجتماعي، فهذه بدهية ننساها وهي تحكمنا آناء الليل وأطراف النهار مثل من ينسى نفسه أنه يتنفس كل لحظة وحياته لا تقوم من دون التنفس ولا يعرف نعمة التنفس حتى يصاب بالربو مثلاً عندها يستيقظ لحقيقة التنفس في الحياة، وكذلك الحال في حال غياب الدولة والأمن الاجتماعي كما حصل في العراق بعد زوال صدام المصدوم.

وينقل عن بلاد فارس أنها كانت توقظ هذا الوعي المرعب مع كل موت ملك فيتركون البلد من دون من يخلفه ثلاث أيام وأربع ليال حسوماً فترى القوم فيها صرعى من الفوضى والقتل والنهب، حتى إذا انقضت الأيام الثلاثة، وهلك من هلك من القوم استغاث الجميع وهلّلوا لقدوم ولي العهد ومعه الأمن.

ولكن ضريبة هذا كان مرضين خطيرين:

- الطغيان الداخلي.
- والحرب بين مربعات الدول.

لأن الدولة وفرت الأمن للأفراد. ولكن لا توجد دولة عظمى توفر الأمن للدول. وهذا هو السر خلف اندلاع الحروب، لأن الحرب هي ظاهرة نزاع بين الدول أو في الدولة الواحدة في أثناء تفككها في الحرب الأهلية.

وحسب الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانت) في كتابه (نحو السلام الأبدي Zum ewigen Frieden) فإن انتشار البشر على وجه الأرض كان خلفه الطغيان والاضطهاد فهذا الذي بعثر البشر، ولعل انقراض إنسان نياندرتال جاء من ملاحقة الهومو سابيتر له، وهو جدنا الأول القاتل كما شهدت عليه الملائكة بأنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

ومن تشقّقات الجماعات هربت مجموعات من وجه الإرهاب والاضطهاد فبنت مجتمعات جديدة على أمل الخلاص من الطغيان كما فعل الأمريكيون في الأرض الجديدة لينقلبوا بدورهم إلى قوة عالمية تحلم بالسيطرة على العالم، وهو ما فعلته روما من قبل فدمرت تدميراً. فهذه هي سخرية التاريخ وقانون تبادل الأدوار.

ولشرح هذه الفكرة أي الدورة الخالدة في تبادل الأدوار أقول ما يلي.



بقرار الملائكة وحكم القديسين نُحرِّم ونلعن وننبذ ونصب دعاءنا على باروخ اسبينوزا .. وليكن مغضوباً وملعوناً، نهاراً وليلاً ، وفي نومه وصبحه، ملعوناً في ذهابه وإيابه، وخروجه ودخوله، ونرجو الله ألّا يشمله بعفوه أبداً، وأن ينزل عليه غضب الله وسخطه دائماً .. ونسأل الله أن يخلص أولي الطاعة منكم وينقذهم، وألّا يتحدث معه أحد بكلمة، أو يتصل به كتابة ، وألّا يقدّم له أحد مساعدة أو معروفاً، وألّا يعيش معه أحد تحت سقف واحدة، وألّا يقترب منه أحد على مسافة أربعة أذرع، وألّا يقرأ أحد شيئاً جرى به قلمه أو أملاه لسانه.

نص اللعنة هذا لم يصب على رأس شقي بل على فيلسوف يعدّ من أعمدة التنوير العقلاني في القرن السابع عشر، الذي تعدّ كتاباته التي لم تتجاوز أربعة كتب أحد المحطات العقلية الرئيسية، في رحلة اكتشاف مسيرة العقل الإنساني، ومغامراته العقلية الضخمة لاختراق المجهول في فضاءات معرفية شتى .

وفي عام ٣٩٩ قبل الميلاد تم تقديم رجل عجوز يناهز السبعين عاماً، إلى المحكمة في أثينا بتهمتي الهرطقة وإفساد الشبيبة، وتم الحكم عليه بالإعدام من أجل آرائه، بجرعة سم الشوكران. كان هذا المجرم (سقراط) واستقبل الموت وتجرع

السم وهو يشرح أفكاره لطلابه المتحلقين حوله حتى اللحظة الأخيرة، وهم يحبسون دموعهم وزفراتهم في مشهد تناقض كوني من هذا الحجم .

والتهمة الخطيرة التي كان يمارسها سقراط بحيث عُدّت جريمة في نظر المجتمع الأثيني ، فصوّت بالأكثرية لإعدام ألمع دماغ في المجتمع، أن سقراط كان يرى أن هناك شيئاً واحداً فقط يمكن التأكد منه هو : جهله؛ لأنّ من يعرف أنه لا يعرف، يكون قد وضع رحله في أول طريق المعرفة، لتصحيح ما عنده والاستزادة المعرفية مما ليس عنده، في كون يعج بالمعرفة ووجود لانهائي يستحيل على النضوب المعرفي. وفيها حرّر مبدأه الأخلاقي الذي استفادت منه مدارس شتى في التاريخ في تأسيس العلاقات الإنسانية، بعدم مكافحة الشر بالشر، وأنه خير لنا أن نتحمل الظلم من أن نمارسه، وأن التغيير الاجتماعي ينطلق مع ممارسة الواجب، أكثر من المطالبة بالحقوق، وأن الالتزام الأخلاقي هو الناظم المحوري في الحركة الاجتماعية، وأن البحث عن الحقيقة يجب أن تشكل هم الإنسان الأول، بغض النظر عن الجانب النفعي فيها، في تشكيل عقل نقدي لا يعرف التقاعد أو الاستقالة في محاولة الاقتراب من الحقيقة..... فأعدمته أثينا في أكبر حماقة تاريخية .

قرار لعنة سبينوزا كان في منتصف القرن السابع عشر للميلاد، ولكن قراراً مشابهاً صدر في حق دماغ إسلامي متألق هو ابن رشد في نهاية القرن الثاني عشر للميلاد، و لم تشفع له شيخوخته أن

يُلقى تحت الإقامة الجبرية، منفياً في قرية الليسانة اليهودية، ليموت بعدها حزيناً كسير القلب لا يستفيد منه العالم الإسلامي حتى هذه اللحظة، فهو مازال على القائمة السوداء (مطلوب).

وتم تدشين الأيام الأولى من عام ١٦٠٠ ميلادي بحريق مروع ارتجفت منه مفاصل المفكرين في أوربة، عندما أُحْرِق المفكر الإيطالي (جيوردانو برونو) حياً في ساحة عامة.

ومرّت الأيام وتتالت القرون فتم رد الاعتبار لسبينوزا، ونحت تمثال لسقراط يحدق بوداعة في حماقة التاريخ، واحتفل بذكرى ابن رشد، ونصب تمثال تذكاري لجيوردانو برونو فيلسوف حرية الرأي، في نفس الساحة التي شوي فيها حياً .

فهذه أربعة أمثلة لأربعة مفكرين من أربعة أديان. في نظم تاريخي ينبض بنفس الوتيرة، ويلاقي نفس المصير، بحماقة بشرية لا تعرف الحدود، ومتى كان للحماقة دواء .



طالب الحقيقة عند الفيلسوف نيتشه

صدق نيتشه الفيلسوف الألماني ذو العقل الجبّار، الذي كان يرسم ملامح طلب الحقيقة وصعوبتها، ويعرف الثمن إليها، في قصص من النوع الذي سردنا حين قال: ; لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصاً في قصده بل عليه أن يترصّد إخلاصه ويقف موقف المتشكك فيه، لأن عاشق الحقيقة إنما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه بل يهيم بها لذاتها ولو كان ذلك مخالفاً لعقيدته، فإذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد أن يأخذ بها . إياك أن تقف حائلاً بين فكرتك وبين ما ينافيها ، فلا يبلغ أول درجة من الحكمة من لا يعمل بهذه الوصية من المفكرين . عليك أن تُصْلي نفسك كل يوم حرباً ، وليس لك أن تبالي بما تجنيه من نصر أو تجني عليك من اندحار ، فإن ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك+.



قصة الفقيه ذو اللوثة العقلية !

ينقل لنا الرحّالة المغربي الشهير ابن بطوطة قصة مثيرة كان شاهداً فيها في أثناء مروره بدمشق حينما تعالى صراخ الناس في المسجد، وهم يحيطون برجل يشبعونه ضرباً، فهرع مع الناس يستطلع الخبر، ليفاجأ بهجوم العامة الكاسح على فقيه (مصاب بلوثة عقلية ؟!) تتعاون عليه الأيدي بالتأديب، بالنعال على رأسه. فسقط الفقيه، وطارت عمامته، وقيد إلى أحد القضاة للتعزير. ونُفاجأ بأن الفقيه الذي أكل هذه (العلقة) الساخنة وطارت عمامته من خفق النعال على جمجمته لم يكن سوى العالم المصلح المجدّد (ابن تيمية) رحمه الله تعالى؟!

هذه القصص وأمثالها تروي حقيقة إنسانية مكررة ، في جانب الإصلاح العقلي في دورة حزينة متكررة، ذات وقع رتيب، ودورة خالدة، ترسم التاريخ بالدم والسم والدموع والدخان واللهيب. لامناص منها ولا مفر، ولا وزر منها أو مخبأ .



فكرة الدورة وعبقرية الاختراع

كل ما في الكون يقوم على حقيقة أنطولوجية تمسك بمفاصل الوجود، من حقيقة الدورة، في شرائح لانهائية للوجود، من الحقيقة الفيزيائية إلى الدورة الفلكية، بين دورة الإلكترون والكوكب ودوران العجلة. من دورة الماء في الطبيعة، إلى دورة الحياة، ومسلسل أيام الدول، ونظم قيام المجتمعات، وحركة نهوض، وتعثّر الحضارات.

نحن لا نعلم بالضبط من اخترع العجلة، ولكننا نعرف أن الحضارة الفرعونية صُرعت بهجوم العربات التي قادها الهكسوس بهجومهم الصاعق المخترق من غربي آسية، فالحضارة الفرعونية لم تستأنس الحيوان، ولم تنقل أحجار الأهرام بالعربات، فلم تكن تعرف العجلة التي تدور على نفسها بحركتها الرتيبة التي تعيد نفسها في دورة لا تعرف الملل ، نقلت الإنسان في المكان، وحرّرته من طوق المسافات، وطوّرت على ظهر هذا الإطار سرعات خرافية وصلت إلى اختراق جاذبية الغلاف الجوي بالصواريخ.



الحركة الدائرية أصل في الوجود

الحركة الدائرية أصل في الوجود، تشكّل جدلية مثيرة بين الثبات والتطوّر، والجمود والحركة، والسكون والانتقال، والمحافظة والتغيّر.

في الفيزياء تخضع الذرة لهذا القانون بين ثبات النواة النسبي ودوران الإلكترون، وفي الفلك تنتظم حركة المجموعة الشمسية بدوران الكواكب حول الشمس، وكما كان دوران الكوكب يحب القطع الناقص الإهليلجي، فإن حركة الإلكترون تخضع لنفس نظام الحركة كما كشف عنها العالم (سومر فيلد) في الأربعينيات من القرن العشرين.

تتغيّر طبيعة الماء من النهر إلى النهر، في دائرة محكمة من التبخر من الأنهار والبحيرات ، إلى التجمع والتكثّف في السماء، إلى السقوط إلى الأرض مرة ثانية، في دورة عملاقة محكمة متكاملة.

يمسك الوجود قانون صارم في دورة حياة النبات والحيوان والإنسان، في حركة قوسية محكمة بين الولادة والنمو، فالنضج، فالتحلل، إلى الاستسلام إلى الفناء، ليخرج من رماد الأموات حياة جديدة، فكما عبّر القرآن عن طبيعة هذا التغيّر وشكل التحول بأنه من ضعف إلى قوة، ومن القوة من جديد إلى

الضعف والشيبة، كذلك رأى أنّ هناك تبادلاً في العلاقات بين الموت والحياة، فهو يخرج الحي من الميت، كما يخرج الميت من الحي تماماً، في معادلة ذات لغز صارم مستعص على الفهم.

إذا كان الإلكترون يدور ليصل إلى حيث بدأ، والأرض تدور لتعود إلى النقطة التي خرجت منها، وقطرة الماء تصعد خفيفة تطير إلى الأفق لتعود سيرتها الأولى نقية طاهرة أفضل مما خرجت، كذلك حياة النسل الجديد، فبقدر سحق الطبيعة للفرد بقدر محافظتها على النوع، في تجلٍ ثلاثي بديع، فالنسل الجديد يكرر وينقّي ويتطور إلى الأفضل، وهكذا فأولادنا ليسوا نسخة عنّا، أو (كوبي) مكرر، بل هم نسخة أفضل منّا، مما لا يمكن لأي جهاز نسخ أن يفعل مثل هذا، في عملية متفرّدة مدهشة بيد الخالق البارئ المصور.



الدورة التاريخية الاجتماعية

وإذا كان مصير الخلية في البدن يماثلها مصير الفرد في المجتمع، بين التضحية بالفرد من أجل الكائن الأرقى، فإن نفس القانون ينطبق على مصير المجتمعات في القدر الإنساني الأعظم.

وهكذا فالدول والمجتمعات تمر بنفس الدورة التاريخية، (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ، فتولد الدولة قوية، ويتشكّل المجتمع بفعل دينامي حيوي ذي زخم قوي، لينمو ويتطور، ثم ليتباطىء ويتراجع، ثم ليتحلل، ليسقط في النهاية في قبضة الفناء والعدم.

وهكذا زالت الدول، وطوى العدم أمماً شتى، وقبائل لا حصر لها، وشعوباً شادت وعمرت، فلا نحس منهم من أحد أو نسمع لهم ركزاً (صوتاً خفياً).

ولكن كما تتحطم الخلايا على مدار الساعة ويحافظ الجسم على الصيانة، كذلك تتحطم الدول والجماعات، وتنشأ محلها مجموعات جديدة أشدّ زخماً وأعظم حيوية وآثاراً، ومن معدل هذه الدورة التاريخية يمكن معرفة فتوّة الجسم من شيخوخته، وشباب الخلية من مرضها، وضعف المجتمع من قوّته.

فإذا كانت الشيخوخة تداهم البيولوجيا، والتآكل يصيب البناء الهندسي ، والمجتمع يتعرّض للفساد والانحلال، والتاريخ يمضي إلى الانحطاط، والكون يهرم كما يشرح ذلك القانون

الثاني من الديناميكا الحرارية الذي دشّنه العالم الفرنسي (سادي كارنو) عام ١٨٢٩م فإن جسم الإنسانية الكبير في حالة تكاثر ونمو وتقدّم بزخم كبير.

الإلكترون يدور، والكوكب يدور، وحركة الهرمون بين الإفراز والإفراغ تنتظم، ودورة جزيء الماء لا تعرف التعب، والزرع يخضر ليصبح هشيماً تذروه الرياح، والبيولوجيا تعزف اللحن الحزين من رحلة القوة إلى الشيخوخة والشيب والضعف، والدول تروي قصة انهياراتها، والحضارات تقص اللحن الشجي لتحللها واستسلامها لقبضة الزمن.

هل هذه رؤية تشاؤمية؟ هل يمكن التدخُّل لفرملة مخطّط السقوط ومنحى الانهيار؟ المؤرخ الألماني (شبنجلر) يرى أنها قوانين عضوية تلف بقبضتها الساحقة الوجود برمته، فهو سياق كوني غامر، يحكم كل قطاعات الوجود، ولكن اتساع حقل الرؤية يمكن أن ينير لنا زاوية مختلفة.



رتابة الحركة وعبقرية التغيّر

إن إطار السيارة إذا تمّ تأمّله في حركته الذاتية على محوره، يعيد عمله الرتيب الممل فلا جديد تحت الشمس كما قال داوود، فالكل باطل الأباطيل، والكل قبض الريح، فالشمس تشرق وتغرب، ولا جديد، ومياه الأنهار تنزلق إلى البحار فلا تملأها، والعين ترى بدون توقّف أو شبع، فالكل يكرّر نفسه في حلقة رتيبة مملّة فارغة المعنى والهدف!!
ولكن رؤية إطار السيارة بمسافة أبعد يرينا منظراً متوهجاً بشكل مختلف، كما هو في نظام التلفزيونات الكبيرة من حجم خمسين بوصة، التي تختفي وتبهت الصورة بالاقتراب من الشاشة، وتلمع وتتوهج وترى بشكل أخّاذ مع الابتعاد عنها.

هكذا يبدو منظر إطار السيارة. إنه كإطار لم يتغير في حركته الرتيبة، ولكن العربة التي تقف عليه انتقلت بالمكان من موضع لآخر، فكشفت عوالم جديدة وهذه هي عبقرية فكرة العجلة، فهي بدورانها على نفسها لم تخدم نفسها، ولكنها خدمت ما هو فوقها، منفلتة من مكان لآخر. فالعجلة قصرت المسافات، وولدت الطاقة، وأخضعت الريح، بل وأدخلت النشوة إلى الروح مع رقص المولوية، وأدخلت مفهوم اللانهاية مع الطّواف حول الكعبة.

إذا نظرنا إلى حركة أنامل السيدة الرشيقة وهي تصنع كنزة من الصوف أو ماكينة الخياطة وهي تنشئ النسيج عروة عروة وعقدة عقدة. قد لا تفهم حشرة العت هذه الأشكال الدائرية سوى تكراراً أحمق لا مبرر له، ولكننا نعرف أن كل الأقمشة هي تراكم من هذا العمل الأحمق الرتيب الدائري المكرّر.

وهنا قام ابن خلدون باختراق نوعي في الفكر، عندما انتبه إلى علاقة الانقلاب النوعي مع التراكم الكمي، وأخذت عنه الفلسفة الماركسية هذه الفكرة في إلحاد غير مبرر. فالذي يعيش مع ابنته التي تكبر كل يوم، لا يلاحظ نموها بفعل الرتابة والتكرار اليومي، وضآلة التغيّرات البيولوجية والفكرية، ولكن الذي ينعزل عن ابنته فترة طويلة ثم يلتقي بها، يصاب بالدهشة من سحر جمالها ورشاقة قوامها وسحر منطقها بشخصية متغيّرة جداً، فشبابها اكتمل وجمالها يشع حيوية وبهجة.

هكذا يفعل التاريخ .. من يعش في مجتمع يرى يومياته، ويكرّر هذه المراقبة، سوف يُصاب بزغللة العين، فلن يرى شيئاً يبعث على الدهشة من تغيّر فاقع ساحر، وهذه الرؤية خلف الإحباطات النفسية واليأس عند المصلحين الاجتماعيين الذين يريدون رؤية التغيّرات الحاسمة في عصرهم وعمرهم. ولكنهم لن يروا تغيّراً يُذكر مع أنّه تغيّر متدفّق لا يعرف التوقف!



الاختراق النوعي عند ابن خلدون

وإذا كانت البيولوجيا والطبيعة تسمح برؤية متباعدة الزمن، فإن المجتمعات لا تمنح هذه الفرصة، ويبقى أمام المراقب طريق سحريٌّ واحد لإدراك التحول الاجتماعي، يراه عقلياً تحليلياً غير منظور بالعين المجردة، في مدرسة التاريخ.

فالتاريخ يضيف إلى العمر أعماراً، فيمد في فسحة العمر ومجال الوقت، بحيث يستطيع أن يقفز الفكر مع وحدات الزمن المتباعدة المترافقة بتغيّرات مذكورة واضحة، عندها يبدأ الوعي التاريخي،فاستيقاظ الوعي التاريخي كما قال المؤرخ الألماني (بوركهارت) هو لحظة الانقطاع عن الطبيعة.

أعود إلى ابن تيمية والدورة التاريخية، فهناك فكرة مزلزلة وهامة ولا ينتبه إليها إلا أقل الناس، فعندما يشق تيار جديد طريقه الإصلاحي، يُهاجَم من المجتمع بأشد من نقر الدجاجات لزميلتهم الدجاجة المجروحة التي تميّزت عنهن حتى الموت، في عقاب جماعي للخروج عن نظام القطيع، وهذا حس دفاعي طبيعي، من أجل التأكّد من جدية التوجه الجديد، وصدق المحتوى، وصلابة العود، وفرط التعلّق، وعشق الهدف، ولكن غير الطبيعي فيه والمرضي والخطير والغامض، هو أنّ من يصارع الاتجاه الجديد، فيفترض في نفسه أنه يمثل الأرثوذكسية، والوصاية

على العقول، والتمثيل الصحيح، واحتكار تفسير النصوص، والقبض على الحقيقة، الحقيقية المطلقة، ينسى في زحمة الزمن الممتد، أنه قد تحول من حقيقة إلى شكل.

فهو (شكل) محنّط يصارع في وقت مختلف (حقيقة) تقفز إلى الوجود وتخترق مجال (الشكل) المرتعب.

وجرت العادة أن دورة التاريخ تقف وتصف إلى جانب الحقيقة ضد الشكل، وتنتصر في النهاية الحقيقة مع فقدانها لكل اسم لامع ورايات خفاقة، وعناوين ضخمة مغرية، ويعود دولاب التاريخ من جديد ليسحق الشكل القديم، وتفرز الحقيقة الجديدة، لتأخذ اسماً وتشكلاً جديدين، في ثوب زاه، وألفاظ جديدة، وكيان مختلف، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾. [الأنبياء/١٠٤]



قصة الفقيه ذو اللوثة العقلية !

ثم يمضي التاريخ ليروي لنا استمرارية الدورة التي لا تقف عند أحد. فسرعان ما يستسلم هذا الكائن الدينامي، الذي حقّق وجوده بالتعب والجهد والعمل العبقري، إلى سحر انتصارات وإنجازات الماضي،وذكريات البطولات والمنعطفـــات المصيرية، فيظن أن الوقوف بنفس مكان إنجاز السابق سيعيد الحدث، في عبودية حمقاء للشكل ونسيان روح الإنجاز، فيستسلم، فتصرعه عجلة التاريخ، عندما تغادره روح الحقيقة، فيذوي ويتحنّط متحولاً إلى الشكل الجديد، الذي يصارع بكل ضراوة محاولات التغيير،التي تشـــق الطريق إليها، الحقيقة الجديدة التاريخية المتشكلة، على حين غفلة من أعين المراقبين، ونوم العيون عن حركة التاريخ الخفية التي لا تعرف التوقف قط. وهو لا ينتبه في كل صراعه أنه يعيد الدورة التاريخية في نغم جديد وحلقة مكررة بدأها هو.

هذه المرة ليس داوود ضد جالوت، بل جالوت قديم ضد داوود جديد.



لو عاد ابن تيمية

ابن تيمية الذي ختم حياته في سجن القلعة بدمشق، وضُرب بالنعال فطارت عمامته، كان يمثل الحداثة في عالم محنّط خرج عن حركة التاريخ.

لو عاد ابن تيمية في أيامنا هذه لأطبقت عليه الدهشة، سوف يتعجّب من الناس، وسوف تتعجّب منه الجماهير، وإذا أُطلق عليه النار هذه المرة فيجب ألّا يفاجئنا الخبر، لأن هذه هي قصة دورة التاريخ.



المحتويات

سيرة ذاتية

ـــ الدكتور خالص محيب جلبي من مواليد القامشلي ـــ سوريا عام 1945 ميلادي.

ـــ يحمل إجازة دكتور في الطب البشري والدراسات العليا (جراحة عامة) جامعة دمشق 1971 م و 1974 م على التوالي.

ـــ نال إجازة بكالوريوس في الشريعة الإسلامية ـــ جامعة دمشق 1974 م.

ـــ حصّل دكتوراة في الجراحة (فاخ أرتس FACHARTZ) ـــ ألمانيا الغربية 1982 م ويعمل حالياً كرئيس لوحدة جراحة الأوعية الدموية في المستشفى التخصصي ـــ القصيم ـــ السعودية)(VASCULAR SURGERY - UNIT)) (طاقة 570 سريراً).

ـــ متزوج وعنده خمس بنات.

ـــ يحمل الجنسية الكندية ويتكلم اللغتين الألمانية والإنجليزية.

ـــ صدر له حتى الآن الكتب التالية:

1 (الطب محراب للإيمان) الجزء الأول عام 1971 رسالة التخرج من كلية الطب.

2 (الطب محراب للإيمان) الجزء الثاني 1975 (كلا الجزئين دار الكتب العربية ـــ دمشق بالتعاون مع مؤسسة الرسالة بيروت).

3 (ظاهرة المحنة ـــ محاولة لدراسة سننية) عام 1980 م (دار البشير عمان).

4 (في النقد الذاتي ـــ ضرورة النقد الذاتي للحركات الإسلامية) 1982 م (مؤسسة الرسالة بيروت).

5 (الإيدز طاعون العصر) عام 1985 م (دار الهدى ـــ الرياض).

6 (عندما بزغت الشمس مرتين) 1991 م (دار الكتب العربية ـــ دمشق).

7 (مخطط الانحدار وإعادة البناء) 1996 م (دار الرياض ـــ مؤسسة اليمامة ـــ الرياض).

8 (سيكولوجية العنف واستراتيجية العمل السلمي) 1997 م (دار الفكر ـــ بيروت).

9 + 10 كتيبين صغيرين تحت عنوان (أبحاث في العلم والسلم) (دار الكتب العربية ـــ دمشق عام 1992 م).

11 كتاب (جدلية القوة والفكر والتاريخ) ـــ دار الفكر ـــ دمشق ـــ أكتوبر 1999 م.

12 (كيف نقتحم متغيرات المستقبل من خلال ثوابت الماضي؟) إصدار مجلة (المعرفة) السعودية بالمشاركة مع آخرين بعنوان كتاب المعرفة رقم (5) ذو القعدة 1419 هـ ـــ الموافق فبراير 1999 م.

13 كتاب (ثورات في الطب والعلوم) إصدار مجلة (العربي) الكويتية في سلسلة كتاب العربي رقم 36 بالاشتراك مع أحمد مستجير وآخرون ـــ التاريخ 15 أبريل 1999 م.

14 كتاب (حوار الطب والفلسفة) ـــ إصدار دار المنبر للنشر ـــ دمشق ـــ أكتوبر 1999 م.

15 كتاب (بناء ثقافة السلم) إصدار دار المنبر للنشر ـــ دمشق ـــ أكتوبر 1999 م

16 كتاب (قوانين التغيير) إصدار دار المنبر للنشر ـــ دمشق ـــ أكتوبر 1999 م.

17 أصدر سلسلة منشورات بعنوان (فانظروا) ما يزيد عن 80 ورقة بحث

(نشاط خاص)

18 كتاب (العصر الجديد للجراحة ـــ من جراحة الجينات إلى الاستنساخ الإنساني) إصدار دار الفكر ـــ دمشق مارس 2000 م.

19 كتاب (الإيمان والتقدم العلمي) إصدار دار الفكر ـــ دمشق في سلسلة حواريات بينه وبين الدكتور هاني رزق ـــ مايو أيار عام 2000 م الموافق صفر 1421 هـــ.

20 كتاب (كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد) بالاشتراك مع جودت سعيد وهشام علي حافظ ـــ إصدار رياض الريس للكتب والنشر ـــ بيروت نوفمبر 2001م.

21 كتاب (أيها المحلفون : الله ... لا الملك) بالاشتراك مع جودت سعيد وهشام علي حافظ ـــ إصدار رياض الريس للكتب والنشر ـــ بيروت نوفمبر 2001م.

22 صدر له كتاب (الدرس الأفغاني) نشر مؤسسة ألوان المغربية ـــ أكتوبر عام 2002م

23 كتاب (الزلزال العراقي) ـــ مركز الراية للتنمية الفكرية ـــ يونيو حزيران 2003م.

24 كتاب ما لا نعلمه لأولادنا (نظام المحرمات) بتاريخ مارس 2004م ـــ مع تقديم للكتاب بقلم المفكر السعودي إبراهيم البليهي ـــ مركز الراية للتنمية الفكرية ـــ جدة ـــ السعودية.

25 كتاب (شخصيات وأفكار) بالاشتراك مع مؤلفين آخرين ـــ إصدار مركز الراية للتنمية الفكرية ـــ أكتوبر 2004م.

26 كتاب (الإسلام والعنف) ـــ الواقع وتحدي الإرهاب وأزمة البناء التعليمي ـــ بالاشتراك مع زهير المخ وأحمد أبو مطر ـــ نشر دار الكرمل ـــ أكتوبر 2005 م.

27 كتاب (كليلة ودمنة الجديد ـــ 65 قصة عالمية) نشر مركز الراية للتنمية الفكرية ـــ جدة ـــ السعودية ـــ فبراير 2006م

28 كان من المشاركين في كتاب (جودت سعيد) ـــ بحوث ومقالات مهداة إليه ـــ نشر دار الفكر ـــ أبريل 2006م

29 كتاب (تحييد العنف) كمشارك رئيسي بالاشتراك مع آخرين إصدار مركز المسبار للدراسات والبحوث الاستراتيجية ـــ دولة الإمارات العربية المتحدة عام 2006م

ـــ كتب بشكل دوري أسبوعيا لجريدة الرياض السعودية في صفحة حروف وأفكار في حقول معرفية شتى لفترة خمسة سنوات ونصف (أكتوبر 1993 ـــ أبريل 1999 م بلغت 235 مقالة).

ـــ كتب بشكل دوري أسبوعياً في جريدة الشرق الأوسط في صفحة الرأي (منذ السادس أبريل 1999 م حتى خريف 2005 ثم لاحقا بشكل متقطع .

ــ كتب 1070 عموداً في جريدة الاقتصادية السعودية منذ فبراير 2000م حتى مايو 2003م.

ــ كتب مقالة أسبوعية في جريدة المدينة السعودية منذ نوفمبر 2001م. وتوقف بعد مقابلة مع الكاتب بعنوان المكاشفات في نوفمبر 2002م.

ــ له مقالة أسبوعية كل يوم أربعاء في جريدة الاتحاد الإماراتية منذ مارس 2002م ــ صفحة وجهات نظر.

ــ كتب في جريدة الوطن السعودية منذ الأول مايو 2003م حتى 16 يوليو 2004 441 عموداً يومياً.

ــ كتب في عكاظ السعودية بشكل متفرق منذ 2 أوجست 2004م تحت منبري (العلم والسلم) أو (المنبر السادس) حتى يونيو 2006م.

ــ بدأ بالكتابة بشكل دوري على شكل مقالة أسبوعية في مجلة (المجلة) السعودية بدءً من 28 مايو 2006م في صفحة (العوالم الثلاثة).

ــ بدأ بكتابة عمود يومي بشكل ثابت في جريدة الاقتصادية السعودية بدءً من 27 مايو 2006م في زاوية (العلم والسلم).

ــ شارك في الكتابة مع مجلة (حوار العرب) ــ بيروت برئاسة تحرير محمد الرميحي رئيس تحرير مجلة العربي الكويتية السابقة ــ منذ سبتمبر 2004م.

ــ كتب مقالات متفرقة في (جريدة) (أرامكو) و(مجلة) (أرامكو ــ القافلة) السعودية في الظهران.

ــ كتب ويكتب بشكل متفرق في العديد من المجلات والصحف والمنابر الفكرية (عربية ودولية مثل مجلة (الفيصل) السعودية ــ جريدة (الجمهورية) في اليمن ــ (الحضارة) إصدار السويد ــ مجلة (الكلمة) في لبنان ــ مجلة (العربي) الكويتية ــ (القافلة) آرامكو السعودية ــ (الراية) المغربية ــ المجلة (العربية) السعودية ــ مجلة (المجلة) (إصدار لندن) ــ مجلة (الصقور) التابعة للكلية الجوية السعودية ــ مجلة (الحج والعمرة) السعودية ــ مجلة (ولدي) الكويتية ــ مجلة (اقرأ) السعودية ــ (صحة الرياض) ــ جريدة (المحايد) إصدار لندن ــ كما ترجمت بعض أعماله.

ــ نشرت كتاباته في العديد من المواقع الإلكترونية مثل إيلاف ــ عفرين ــ الحوار المتمدن ــ كتابات ــ كلنا شركاء ــ الكوت ــ ...

ــ يمكن أخذ فكرة إجمالية عن نشاطاته الفكرية وتراثه من الجوجول في الانترنت.

ــ شارك في ندوة إيلاف على موقعها الإلكتروني في الإجابة على 29 سؤالاً عام 2003م.

ــ أذاعت له محطة الشارقة برنامجي (مسلسل نافذة العلم على الإيمان) في 13 حلقة ومسلسل (العلم والإيمان) في 10 حلقات.

ــ استضافته المحطة الفضائية (اقرأ) للإدلاء برأيه كمحاور رئيسي في مشكلة العنف الجزائري والمصالحة الوطنية لعام 1999 م، وكذلك عام 2000 لمناقشة هدم تماثيل بوذا في أفغانستان. ثم لمناقشة مشكلة العنف في الحركات

الإسلامية أكتوبر عام 2001م.
ـــ سجلت له قناة اقرأ ثلاثين حلقة تحت عنوان العلم في محراب الإيمان.
ـــ شارك في مؤتمر (التعددية) في فيرجينيا عام 1993 م بدعوة من المركز العالمي للفكر الإسلامي حيث تقدم بورقة بحث بعنوان (إلغاء الموجود أم إيجاد الملغي؟) بين 26 \ 30 نوفمبر 1993م.
ـــ شارك عن طريق مؤسسة (سجى) للإنتاج الفني في الأردن في مؤتمرين (نوفمبر 1997 م ومايو أيار 1998م)(تذاع من محطة ART) في (منبر الشباب) و(المنبر الحر)(الأخير عن العنف والتطرف والإرهاب).
ـــ شارك في المؤتمر الذي نظمته جريدة الاتحاد الإماراتية بمناسبة صدور العدد عشرة آلاف منها في أبو ظبي في 19 و 20 يناير 2003م بورقة عمل بعنوان كيف حرر الورق عقل الإنسان؟
ـــ شارك بورقة في مؤتمر (تأثير العولمة على الإعلام) الذي دعي له 500 مفكر وإعلامي وعقد في جدة بالتعاون بين رابطة العالم الإسلامي وجريدة الشرق الأوسط بتاريخ 4 أبريل 2002م.
ـــ شارك في مؤتمر (حوار الحضارات) في مدينة كيبك الكندية في جامعة لافال تاريخ (10 \ 11 مايو 2003م) وتقدم بورقتي عمل بعنوان (إعادة تصنيع العقل المسلم) و (الحقبة الأمريكية وقانون التاريخ).
ـــ شارك بورقة بحث بعنوان (دراسة في سيكولوجية الطغيان) في المهرجان الثقافي الذي نظمته بلدية بوشر ـــ مسقط في سلطنة عمان بتاريخ 25 يناير 2004م.
ـــ استضافته قناة مسقط (عمان) للمشاركة في نقاش القضية الفلسطينية ومستجداتها بتاريخ 26 يناير 2004م .
ـــ شارك في ندوة (أولويات) بتاريخ 27 ديسمبر 2004م التي استضافته فيها قناة (العين) الفضائية لمناقشة مسألة (فلسفة المواجهة) وأيهما أولى الجرأة والمواجهة بالحق أم المسايسة والمداهنة؟
ـــ استضافته قناة العربية ـــ دبي ـــ في برنامج (إضاءات) الذي يقدمه تركي الدخيل في 3 يناير 2005م وكان العنوان من هو (خالص حلبي؟).
ـــ شارك في ندوة (أولويات) بتاريخ 7 فبراير 2005م التي استضافته فيها قناة (العين) الفضائية لمناقشة مسألة (تغيير الحكومات أم تغيير الشعوب والثقافات؟).
ـــ تقدم بورقة في النادي الأدبي بمناسبة (الملتقى الخامس لقراءة النص) بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 1426هـــ ـــ مكة المكرمة بوصفها نصاً، وكان عنوان الورقة (الإعلان الإبراهيمي في مكة)، بتاريخ 29 \ 31 مارس 2005م الموافق لـــ 19 \ 21 صفر 1426 هـــ.
ـــ شارك بمداخلة من كندا تلفونياً في برنامج الشريعة والحياة في مايو 2005 عن سنن تغيير النفس والمجتمع التي قدمته خديجة بنت قنة وكان المتحدث جودت سعيد.
ـــ شارك في مؤتمر (محور السلام Axisforpeace) في بروكسل 17 \

18 نوفمبر 2005م الذي نظمه موقع فولتير وشبكة الانتلجنسيا. والورقة التي تقدم بها عن موت مؤسسة الحرب.
ــ ألقى محاضرة في المنتدى الثقافي العربي الفرنسي الذي ينظمه الطلاب المغاربة في باريس بتاريخ 21 نوفمبر 2005م .
ــ ألقى محاضرة في الطلبة المغاربة في جماعة ليل الفرنسية بتاريخ 19 نوفمبر 2005م عن معنى اللاعنف والفكر.
ــ ألقى سلسلة من المحاضرات في المساجد الباريسية بين تاريخ 20 و23 نوفمبر 2005م لتأسيس مفاهيم السلام بين المهاجرين المسلمين لأوربا.
ــ ألقى محاضرة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي في باريس عن الأساس الأخلاقي للاعنف بتاريخ 24 نوفمبر 2005م. ودعا فيها إلى تأسيس حركة اللاعنف الأوربية باسم (E-NO-VI-M) الإيونفيم.
ــ أجرت معه قناة الشرق (أوريون) في باريس بتاريخ 22 نوفمبر 2005م في حديث على الهواء مباشرة في التعليق على أحداث العنف التي اندلعت في فرنسا في نوفمبر 2005م.
ــ ساهم في رفد مركز (اللاعنف العالمي ــ مبارك عوض) في واشنطن بالأبحاث.
ــ بدء من أكتوبر 2005م أصبح من كتاب موقع إيلاف الإلكتروني وتصدر له بعض المقالات على نحو متفرق.
ــ نال جائزة (علي وعثمان حافظ الصحفية) عن أفضل مقالة لعام 1997 م.
ــ اعتبر رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط (عبد الرحمن الراشد) السابق أن مقالته (لماذا يهاجر المواطن العربي ؟ سفينة تغرق) أنها أفضل مقالة كتبت في الصحافة العربية لعام 1999م .
ــ شارك في قناة الجزيرة والعربية الفضائية في مواضيع الإرهاب والعنف والسلفية.
ــ أجرت معه جريدة (الوطن) البحرينية مقابلة بتاريخ 14 يونيو 2006م عن مشروعه الفكري عموما.
ــ سجل في قناة البحرين ثلاثين حلقة بعنوان العلم والإيمان واللاعنف والتاريخ بتاريخ 15 يونيو 2006م على أن تبث لاحقاً في رمضان.
ــ شارك في ندوة (الملف النووي الإيراني) في 7 نوفمبر 2006م مع نخبة من المفكرين الذي نظمه منتدى الاتحاد في أبو ظبي ــ دولة الإمارات العربية المتحدة.
ــ قام بتاريخ 10 ديسمبر 2006م بمحاضرة في كوبنهاغن في المدرسة الإسلامية عن أهمية اللاعنف لحل المشكلات المذهبية.
ــ ألقى بتاريخ 12 ديسمبر 2006م محاضرة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي بعنوان في النقد الذاتي
ــ يؤمن بالأسلوب السلمي كأداة تحرير أساسية للإنسان العربي ويدعو إلى تأسيس لا عنف عربي داخلي ويرى أن جناحا الطيران للتحليق إلى المستقبل هما العلم والسلم .







الأمم لا تتعلم بالكلمات بل الكلمات..
الأمة التي لا تشعر بالحرية وتعشقها لا تستحقها..
التغيير يتم بالتدريج واللين..
ليس المهم استبدال الحاكم بل فرملته..
ما لم يكن البديل جاهزاً فلا معنى للتبديل..
الكل يوظف الله سبحانه إلى جانبه مسلحاً بالأدلة العقلية والنقلية..
الفقهاء منهم من اشتروا بدراهم معدودة..
ومنهم من لا يفقه من الفقه سوى عمامة كبيرة..
للأسف لم تجتمع قريش في تاريخها إلا لقتل النبي..





مؤسسة دار الاجتهاد

الوكيل الحصري في المملكة العربية السعودية
جدة- حي الثغر - شارع باخشب - املاك الأمير متعب
ص.ب 41547 الرمز البريدي 21531
هاتف: 6895807-6762431
فاكس: 6810578